مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ مَرْيَم

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة مريم

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة مريم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

ابتدأت سورة مريم بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، قال تعالى ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ وهي خمسة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمامها، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: قول ابن عباس رضي الله عنهما: في ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ إن الكاف من كافٍ، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق. ذكره ابن عزيز القُشيري عن ابن عباس، معناه كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده[٢] وقيل في دلالاتها معان متنوعة، تشير كلها إلى أسماء الله تعالى الحسنى.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُمَجِّدُ سبحانه وتعالى نعمة رحمته بزكريا عليه السلام، ويُشيد بكريم عطائه الولد بعد أن بلغ زكريا من العمر عتيا، فتحقق فيه وفي زوجته موانع الإنجاب، وذلك من رحمته تبارك وتعالى به عليه السلام ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ فهذا ذكر رحمة الله تعالى وإجابته لعبده زكريا عليه السلام حين دعاه، والذي سنقص عليك ذكره أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وما ناله من رحمتنا التي أكرمناه بها. بما يفيد اذكر ما حصل من رحمتنا بعبدنا زكريا، إذ تجاوزنا به موانع الإنجاب، وحققنا له مراده وما تمناه من الولد. وورد البيان الكريم بأسلوب موجز وجزل، يَشُدُّ الانتباه نحو معرفة هذه الرحمة التي حضي بها نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام.

وكما تم افتتاح السورة بالأحرف المقطعة، المعجزة في دلالاتها، وترابطها، وجميل نسق تتابعها، افتتحت كذلك الآية الكريمة بكلمة ﴿ ذِكۡرُ ﴾ التي أفادت: فهذا الذي نذكره لك أيها النبي هو ﴿ رَحۡمَتِ رَبِّكَ ﴾ الواقعة مباشرة على المخصوص من العباد وهو زكريا ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ وقد رفع الله تعالى قدر زكريا عليه السلام بتعيينه بتلك الرحمة، وبذكرها في كتابه الكريم، وفي هذا إكرام له عليه الصلاة والسلام بما أفاض الله عَزَّ وجل عليه من رحمته جَلَّ في علاه، وسماه عبده، وذكره باسمه ﴿ زَكَرِيَّآ ﴾ فأنعم وأكرم به من تخصيص. مما يفيد أن رحمة الله تعالى إذا نالت العبد أكرمته من كل وجه. ومن جليل كرم الله تعالى على نبينا محمد

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٥١/١١)

صلى الله عليه وسلم أن ذكره في الخطاب، بربط الكاف الذي هو ضمير المُخَاطَب بالرب سبحانه وتعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ تكريما له بذلك صلى الله عليه وسلم.

فاذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم ذكر رحمة الله تعالى بعبده ونبيه زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ حين تضرع إلينا في ستر وخفية﴿إِذْ نَادَىٰ ﴾ والنداء هو الدعاء[١] وهو الطلب، والرجاء والالتجاء، وكونه نادى بدعائه ربَّه تبارك وتعالى فإنه يعني الاستجداء والاستغاثة، وكلمة النداء في هذا المقام تدل على قوة التضرع، في توجهه إلى الله تبارك وتعالى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ وكان صفة هذا النداء ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ أي: سراً، تأدباً مع ربه تبارك وتعالى، وبُعداً عن مواطن الرياء، وتحقيقاً للإخلاص. قال قتادة رحمه الله تعالى: إن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي[٢] وفي تكرار كلمة النداء ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ما يدل على تأكيد الطلب والإلحاح، مما يفيد أهمية الإلحاح التذلل في الدعاء لله تعالى، والتستر به، وإخفائه عن الناس، وتحقيق الإخلاص فيه.

والنداء يُطلق على رفع الصوت بالإعلام والطلب، إلا أنه وُصِف بالخفي، وفي الجمع بين صفة الدعاء بأنه كان نداء ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ وبين النداء الخفي ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ أنه كان في حق زكريا استجداء في الدعاء إلى درجة أنه يشبه في قوته بمن ينادي من شدة رغبته في سماع صوته وطلبه، ومع هذه الرغبة الملحة في الطلب إلا أنه كان ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ خافتاً، وذلك لعلمه أن الله تعالى يسمع إلحاحه في الدعاء وإن كان خفياً خافتاً.

ومن جميل دعاء زكريا عليه السلام أنه بدأ بوصف حاله من أوجه متعددة، فيخبر اللهُ تعالى عن نبيه زكريا أنه ﴿ قَالَ ﴾ في دعائه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ فبدأ دعاءه بالنداء ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ فخاطب ربه بالربوبية التي تحمل معنى المالك والخالق والمتصرف والمعطي، الذي ربيتني وهديتني ووفقتني وأعطيتني. ثم توجه في دعائه بوصف حاله من ثلاثة أوجه: الوجه الأول: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ فوصف حاله بما أصابه من الشيخوخة وكبر السن الذي وصف

---

(١) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٨٢٢/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٣/١٥)

به حالة جسمه، والمعبرة تمام التعبير عن ضعف البدن ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ والوهن هو الضعف، واصفاً هذه الوهن بأنه بلغ شدته ومنتهاه، لأنه إذا وهن العظم فما دونه كان أوهن، فيكون قد بلغ الوهن فيما هو دونه من بقية الجسم كماله وشدته، لأن العظم هو الذي يحمل الجسم، فإذا وهن الذي يحمل الجسم، فيكون في المحمول شدة على الحامل له، والذي أفاد أن الوهن قد تجاوز ما فوق العظم من اللحم.

والوجه الثاني: بيان لحالته المعبرة عن النذير، الذي هو الشيب ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ وانتشر الشيب في شعر الرأس، ولفظة الاشتعال كناية عن قوة الظهور، مما يدل على أن علة وهن العظم لم يكن مرضاً، بل للتقدم في السن، والوصول إلى حالة الضعف. ومن جميل الوصف أنه أسند ونسب الاشتعال للرأس، ولم ينسبه للشعر، لأن الرأس هو قوامه، وهو المغذي له. قال أبو عمرو رحمه الله تعالى: شبَّه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته، وانتشاره في الشعر، وفشّوه فيه، وأخذ منه كل مأخذ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر، ومنبته، وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزاً، ولم يصف الرأس، اكتفاء بعلم الْمُخَاطَب أنه رأس زكريا. فمن ثَمَّ فصحت هذه الجملة، وشهد لها بالبلاغة منه[١] ومن دقائق البيان وبلاغته أنه أُفْرِد العظم ولم يُجْمَع ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ فدل إفراد العظم على عموم جنسه قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ووحَّدَهُ لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركَّب منه الجسد، قد أصابه الوهن[٢] وهذه بلاغة في الإيجاز، وإعجاز في دقة الوصف والبيان. وكذلك من روائع البيان أنه أشار إلى ضعفه وكبر سنه بصفة باطنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وهي ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ وصفة ظاهرة للعيان، وهي ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ وهذه من نفائس الشكوى الشاملة للباطن والظاهر.

ثم انتقل من وصف لحاله إلى ما عهده من ربه تبارك وتعالى من استجابة دعائه ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ فلم يكن من حالي يا الله أن أصابني الشقاء بدعائي إياك يا رب، واستجابتك لمسألتي، وهو ما عهدته منك. وأثبت بذلك مداومة الدعاء والاستجداء، وأن الله تعالى كان يستجيب له، كما نفى عن نفسه حصول الشقاء، وذلك لاستجابة الله سبحانه وتعالى لدعائه، وفي ذلك اثبات لسعادته، لأن نفي الشقاء اثبات لضده وهو السعادة. مما يفيد أنه كان عليه السلام نبياً صالحاً، ومستجاب الدعوة، وأنه يرضى بما قسمه الله تعالى له من حظوظ الدنيا، وأن الصلاح سبب لاستجابة الدعاء، وأن من كان صالحاً ودعا ربه جَلَّ في علاه،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٣-٤)

(٢) المرجع السابق (٣/٣)

استجاب له ربه تبارك وتعالى، فامتنع الشقاء عنه بما يدفعه اللهُ تبارك وتعالى عنه من النقم، وما يجلب له من النعم.

ثم انتقل في دعائه إلى علل وأسباب ما سيطلبه من الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ فإني خفت من عصبتي وأقاربي أن لا يقوموا بواجبات الدين، وليس عندي ولد يتولى هذا الأمر، لأن زوجتي عاقر، فلا تلد، فارزقني الولد الذي يتولى شأن الدين. وقد بدأ تحليل الأسباب بدقة بيانية، وبلاغة كلامية عظيمة ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي ﴾ فالخوف متعلق بالموالي من بعده، وهم أقاربه الذين يلون أمره بعد موته، والخوف دليل على أنه لم يجد فيهم من لديه الهمة في الإبقاء على الدين، مما يفيد أن من أسباب بقاء الدين، وجود من يهتم بشأنه، ويحث عليه، ويدعو إليه، حفاظاً عليه من أن يدخل إليه ما ليس منه، أو يحصل الضعف في الأداء من العمل. وأنه إذا لم توجد تلك الأسباب فإن الناس يبدؤون في التهاون حتى يتغير، كما هي حال الأمم بعد أنبيائهم. وأفادت جملة ﴿مِن وَرَآءِي ﴾ الإشارة إلى موته، أي بعد موتي، لأنه بلغ من تقدم السن ما يوحي بقرب أجله. فكان خوفه على دين الله تعالى أشد من خوفه من الموت. ودليل على إدراكه لحقائق بقاء الدين، من الأسباب التي لا بد منها، مما يبين أن دين الله تعالى قد ربى في أهله أهمية الأسباب، وأن الأسباب مطلب شرعي لكل أمر، خاصة شأن الدين.

ثم أشار إلى انتفاء الولد منه بسبب أن زوجه عاقر، فلا تلد ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ والعاقر هي العقيم، ويطلق على الرجل والمرأة، وقد خص زوجته بالعقم، مما يفيد أن السبب متعلق بها ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ فارزقني بولد من صلبي، يلي أمر النبوة، وقد خصص هبة الولد بأن تكون اصطفاء من عندك ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ أي: من عندك، حيث تنعدم فيها الموانع، فتكون هبة خاصة، تتجاوز الموانع الطبيعية، مما يفيد إدراكه عليه السلام أن الله تعالى إذا أراد شيئاً يتجاوز ما أودعه من السنن والأسباب، بعد أن أصبح شيخاً كبيراً، مع عُقم زوجته طوال فترة حياتها معه، وهذا الطلب من أجل غاية سامية ورفيعة وهي: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أي: يرث النبوة والعلم، وكذلك يرث من آل يعقوب ما منحتهم من العلم والنبوة ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ فيرث نبوة آل يعقوب، لأن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فيرث منهم صفات النبوة والعلم ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ

رَضِيًّا ﴾ أي: مرضياً في أخلاقه وأفعاله، فترضاه أنت يا الله، ويرضاه عبادك عنه، ومرضياً عندك وعند خلقك، ومحبوباً عندك وعند خلقك، فيكون مرضياً في دينه وعلمه وخلقه.

وجميع هذه الأسباب والدواعي هي علل لطلب الولد، وأن هذا الولد ليس من أجل خدمته، بل من أجل القيام بأمر الدين والدعوة إليه، والحال أنه لم يعد قادراً على كمال لوازم الدعوة إلى الله تعالى، فانتفت منه المقاصد الذاتية للولد، ليتبين منه جميل الإخلاص لله تعالى في أمر الدين، وخوفه على ضياعه من غيره إن لم يكن هناك من يقوم به، مما يدل على أن من أسباب قيام الدين أن يكون هناك من يأخذ بزمامه نحو الاستمرار والثبات والبقاء. وورد في الحديث النبوي الشريف ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [١]

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

بعد أن دعا زكريا عليه السلام ربه أن يهَب له ولياً، يرثه ويرث من آل يعقوب العلم والنبوة، استجاب الله تبارك وتعالى سؤاله ومطلبه بأسلوب كريم، واستجابةً وعطاءً عظيماً. فقال عزَّ وجل ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ فخاطب الله تبارك وتعالى زكريا بالنداء ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ ﴾ بما يفيد التخصيص والتنصيص له باسمه، وفي هذا النداء له باسمه تكريم له عليه السلام، ورِفعَة لشأنه بأن خَلَّد الله تعالى ذكره في كتابه القرآن الكريم، وكذلك بمخاطبة نبيه صلى الله عليه وسلم في شأنه. وفي هذا ما يفيد الاهتمام والتكريم والبشارة التي تعني العناية بنبيه زكريا عليه الصلاة والسلام، الذي دعا ربه

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (٣/٣٧٣) برقم (٤٢٩١)

دعاء خفياً ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وبدأ الله سبحانه وتعالى عبده زكريا بالبشارة بعد النداء مباشرة، فما أكرم ربنا، وما أعظم رحمته، بأن يخاطب عبده بهذا الأسلوب الرحيم، والتكريم العظيم، الذي يُعَلِّمِ به الإنسانَ أدب الخطاب والْخُلُق الرفيع مع الغير من العباد، فإذا كان الله تعالى بجلالة قدره يتعامل مع عبده زكريا بهذه الحفاوة الكريمة، فإنه منهج تعليمي لِما يجب أن يتعامل به الإنسان مع غيره ممن هو دونه، فكيف إذا كان هذا الإنسان أعلى منه رُتبة ودرجة، كالوالدين، والأقارب وغيرهم من الناس. بل وحتى مع منهم أقل منه في مقاييس البشر.

فعلى جلالته وعظمته تبارك وتعالى يخاطب عبده الصالح بأجمل الأساليب، وألطفها، وأكرمها، مع الاستجابة لمطلبه ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ إنا نبشرك بما طلبته منا، وهو غلام ذكر كما طلبت، ليقوم بما رجوت وطلبت أن يكون. بل زاده كرماً وبركة سبحانه وتعالى بأن سماه من عنده عَزَّ وجل ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ فسماه تبارك وتعالى: يحي، وميز هذا الاسم بأنه غير مسبوق ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسبقه أحد بهذا الاسم، فهو أول من تسمى بهذا الاسم، لأن ﴿سَمِيًّا﴾ تعني الموافق له في الاسم، وهو السَّمي. فلا يوجد من يوافقه في هذا الاسم من قبل، فهو غير مسبوق بهذا الاسم اطلاقاً. كما أن هذا الاسم يحمل في دلالته الحياة والانتعاش لهذا الغلام وللدين ولأمته، ويكفيه شرفاً أن الذي سماه بهذا الاسم هو الله تبارك وتعالى.

فإذا كان الله جَلَّ في علاه يخاطب عبده بهذا الخطاب الكريم، فإنه حري بالمسلم أن يخاطب من هو دونه، ومن هو أعلى منه بجميل الخطاب، كما فيه بيان لأهمية البشارة، وأثرها على النفس، وأنها من هدي الله تعالى ونهج نبيه صلى الله عليه وسلم، وفيه فضيلة اسم يحي، وما يحمله من المعاني الجميلة، وفيه كذلك بيان عن أن مهام الغلام لا يمكن أن تقوم بها الأنثى، فلكل واحد منهما خصائصه ومهامه، وفيه فضل زكريا وابنه يحي ومكانتهما عند الله عَزَّ وجل.

وقد استغرب زكريا عليه السلام من حصول الولد وامرأته عاقر، مع كبر سنه، فتوجه بالسؤال إلى ربه تبارك وتعالى عن كيفية حصول الولد وانعدام الأسباب، ووجود الموانع المتعلقة بأسباب الإنجاب، وتحصيل الولد ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ فيقول زكريا عليه السلام يا ربي كيف يحصل ذلك ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ أي: كيف؟ ومن أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ كيف يحصل لي هذا الغلام ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ وحال زوجتي أنها عاقر، فممتنع منها الحمل، وأنا قد تقدم سني ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ أي: نَحَل ووَهَن

عظمي، وهو وصف آخر لما سبق ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي ضعف عظمي. قال مجاهد رحمه الله تعالى عن معنى ﴿عِتِيًّا﴾ أي: نحول العظم[١] فقد كَبُرَ في السن الذي أضعفه، وكان له تسع وتسعون سنة[٢] فيكون قد وصل لحالة اليبس والجفاف. وهو كناية عن تمام الكبر، وتمام الضعف. وهو سؤال على سبيل التعجب من عظيم قدرة الله تعالى، وعلى سبيل الاستعلام والاستخبار، ليعرف حقيقة وطريق الحصول على هذا الغلام الذي بشره الله تعالى به، وسماه يحي.

ثم يُجيب الله تبارك وتعالى ويرد على سؤال زكريا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فبدأ الجواب من الله تعالى على استفسار زكريا عليه السلام بقوله عَزَّ وجل ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ هكذا الأمر كما ذكرت يا زكريا، من أن امرأتك عاقراً، وبلغت أنت من العمر عتيا. فبذلك يقرر الله تبارك وتعالى لزكريا عليه السلام العلل والموانع التي ذكرها، ولكن الأمر بالنسبة لله تعالى سهل وميسور ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ فإذا كانت هذه الموانع يصعب إزالتها على المخلوقين، فإنها على الله تعالى يسيرة سهلة، فتدرجت الإجابة إلى ما هو أعمق في الاستدلال والبيان، بتقرير سهولة ذلك الأمر لله تعالى ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ فإنه أمر ميسور على ربك تبارك وتعالى.

ثم ينتقل البيان العظيم إلى إعادة وإحالة زكريا إلى حاله قبل وجوده ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فأوقفه الله تبارك وتعالى على أن يتأمل نفسه، ليكتشف سهولة ذلك على الله تعالى، وفيه تقريب الدلالة إلى أقصى ما يتعلم بها المتعلم ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فلا تعجب مما بشرتك به يا زكريا، فقد كنت يا زكريا قبل أن أخلقك عدماً، فالذي أوجدك من لا شيء قادر على أن يهب لك هذا الغلام الذي اسميناه يحي. مما يبين أن قدرة الله تعالى أعظم من أن يقسها المخلوق على الأسباب، لأن الله تعالى هو رب الأسباب وخالقها ومُوجِدها.

ومن جميل البيان الترتيب الدقيق في التدرج العظيم، فأول الإجابة تقرير الموانع التي ذكرها زكريا عليه السلام ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ فلم يتجاوزها البيان لما بعدها، ليتبين من ذلك أهمية التدرج في البيان والتعليم،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٤٦٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٣٧٣)

وأهمية إعلام المتعلم أو الْمُخَاطَب بمفهومه، من حيث صحته أو خطئه، ثم بيان موطن السهولة وعلتها ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فلا تقس يا زكريا قدرات المخلوق على قدرات الخالق، وأن الأسباب بيد خالقها، فإنه يُوجِدُهَا ويُزِيلُها. وفي ذلك انتقال تدريجي لمواطن القدرة، ثم ينقله سبحانه وتعالى إلى الشاهد على سهولة ذلك بأقرب دلالة يفهمها ويعرفها المتعلم، أو الْمُخَاطَب ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ وفي هذا الانتقال ما يبين ويوضح المنهجية العملية، ويُولِّد القناعة، ويقوي الفكر بالقياس والإيضاح بالحقائق، ويرفع مستوى العلم لدي المتعلم، أو الْمُخَاطَب، ويرفع مستوى درجة الإيمان.

فإذا طمع المسلم في أمر يعجز عن تحقيقه، أو أن الأسباب مُتَعَذِّرةٌ عليه، فإن ما يتعذَّر ويعجز عنه المخلوق، لا يُعجز ولا يتعذَّر على الخالق العظيم، سبحانه وتعالى. فهو الذي وضع النواميس وقَدَّرَ القوانين، وهو الذي جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فأفاد ذلك أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فَعَلَهُ وعَطَّل الموانع وأوقفها، مما يغرس في المؤمن قوة وزيادة في الإيمان بقوة الله تعالى وقدرته، فالخلق خلقه، والنظام نظامه، يُسَيِّرُهُ كيف يشاء، وعلى الوجه الذي يشاء، وأن الله تعالى فَعَّال لما يريد. فلا يتردد المؤمن من سؤال الله تعالى، حتى وإن عاين ابتعاد الأسباب، وأنها بعيدة المنال. فإن الله تعالى قريب مجيب، يُحَرِّف ويُصَرِّف الأسبابَ كيف يشاء. فإن ضعفت أسباب علاج الأمراض فلا تصعب على الشافي، المشافي، الكافي سبحانه وتعالى، وإن غابت أسباب الرزق، فإنها لا تغيب عن الغني المغني الكريم جَلَّ جلاله، الذي لا يعجزه شيء عن تصريفها وتحريفها كيف يشاء، ومتى شاء، فهو الذي خلقها وأوجدها، وهكذا في كل أحوال المؤمن. ويفيد ذلك كذلك أن الأسباب لا تعطي ولا تُحقق شيئاً إلا بقدر الله العزيز الحكيم ومشيئته. فبهذا ينقطع اليأس من قلب المؤمن، ويحل محله الأمل في الله تعالى، وفي قدرته وتقديره، عَزَّ وجل.

وبعد أن أدرك زكريا أن الموانع التي ذكرها لا تأثير لها على حصول الولد الْمُبَشَّر به، سأل ربه تبارك وتعالى ما يزداد به بهجة وسرورا لحين حصول الولد ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ فالسؤال هنا هو سؤال استبشار، بأن يجعل الله تعالى له علامة يستبشر بها، ريثما يحصل الحمل، فيزداد سروراً بذلك، وشكراً لله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ وهي علامة يعرف بها حَمْل زوجته، ليتلقى هذه النعمة بما يليق بها من الشكر والثناء، فأخبره الله تعالى أن آية وعلامة ذلك الحمل هو عجز زكريا عليه السلام عن الكلام، فلا يتكلم ثلاثة أيام إلا رمزاً، بالإشارة. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ فجعل الله تعالى علامة ذلك أنه لا يستطيع أن يكلم الناس ثلاث ليال ﴿سَوِيًّا﴾ وهو سليم الحواس، وفي عافية من ربه عَزَّ وجل،

من غير خرس ولا آفة، وقد ذكرها سبحانه وتعالى هنا عدداً بالليالي، وفي سورة الأعراف بالأيام، والمعنى واحد، فالليالي دالة على الأيام، والأيام دالة على الليالي. وفي ذلك آيتان عظيمتان باهرتان، آية المنع بعد القدرة، وآية العطاء بعد غياب القدرة وانعدامها، إذ مُنِعَت القدرة المعتادة من الكلام لمدة ثلاثة أيام، ثم إعادتها بعد تلك الثلاثة الأيام، فتجانست هذه الآية الباهرة المانعة للكلام مع القدرة على إعطاء الْحَمْل بعد العجز والامتناع. فهذه آيتان خارقتان باهرتان من المنع والعطاء، وبما يخالف الحال وواقع السنن والخواص التي وضعها الكريم الرحمن، فَإنه مَنْعٌ وتَعْطِيلٌ للقدرة الْمُعْطَاة من الكلام، وإطلاق وتفعيل للقدرة الْمُعطلة من الحمل والإنجاب، بِسُنَنِ الله تعالى من عوامل الحمل والإنجاب. فسبحانه وتعالى الذي أوجد القُدْرَة بعد انعدامها وغيابها عن الإنجاب، ومنع القدرة على الكلام بعد وجودها ثم أعادها بمنه وكرمه سبحانه وتعالى. فإن الذي منع القدرة بعد وجودها، هو الذي منح وأعطى القدرة بعد انعدامها. فلا يأس إذا غابت القدرة بانعدامها أو أن بُعْدِها، ولا غُرور إن وجدت القدرة وتأثيرها، فقد يخذل اللهُ تعالى العبد بسلب القدرة عن فعلها بعد وجودها. ولا يأس عند انعدام القدرة أو ضعفها، فقد يُعيد ويُوجِد القدرة بعد انعدامها، أو امتناعها أو ضعفها. فلا يأسٌ للعبد مع الله تعالى. ولا غرور بالقدرة مع الله عَزَّ وجل. فالذي أعاد القدرة بعد انعدامها يُعيد الحياة بعد الموت، مما يوجب الإيمان بالبعث والنشور، وأن الله تعالى على كل شيء قدير.

فيتبين للعبد أن الأسباب بيد الله تعالى الكريم الرحمن، منعاً وإعطاءً، فسبحان من يمنع ويعطي، ويُعطِّل ويصلح بحكمته، فلا سببٌ يمنع عطاءً له تبارك وتعالى، ولا سببٌ يعطي ما منع. فلا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع. فسبحان الله العلي القدير المتعال. فهذه المعجزات والآيات عبرة ودروس لكل مُعْتَبِر من الأنام.

فبعد ما بشر اللهُ تعالى عبده زكريا ببشرى الغلام يحي، اتجه إلى قومه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ خرج من محرابه أو مصلاه الذي يتعبد الله تعالى فيه مباشرة، متجهاً إلى قومه، ولعدم قدرته على الكلام أشار إليهم ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: أشار إليهم ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ بأن يسبحوا الله تعالى ويذكروه في وقتين عظيمين، الأول: ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً ﴾ أي: أول النهار ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ أي: آخر النهار. مما يدل على فضل هذين الوقتين في الذكر عن غيرهما من الأوقات، ففيهما زيادة فضل من بين بقية الأوقات، مما يبين أن لله تعالى أن يخصص ما يراه من الأزمان للذكر أو للعبادة عموماً. ومن فوائد ذلك: أن من بُشر بخير فليشكر الله تعالى، ويسارع في ذلك، وفي طلب زكريا عليه السلام من قومه تسبيح الله تعالى لأن البشارة بيحى عليه السلام منفعة ومصلحة عامة للجميع. ومن

فوائد كلمة الإيحاء ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ أنها تعني الإعلام والإخبار، دون بيان هيئته، ليشمل الدلالات التي ذكرها أهل العلم، كما أوردها الطبري رحمه الله تعالى: أنها الإشارة باليد، وقيل: أنه كتب لهم في الأرض[١]

ومن فوائد دلالات المحراب، كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أنه أكرم موضع في المجلس[٢] وكذلك هو محل العبادة. وبهذا المعنى فإن فيه إشارة إلى كثرة صلاة وعبادة زكريا عليه السلام. ويُستفاد من هاتين الدلالتين لمعنى المحراب: أن موضع ومحل العبادة هو أكرم مكان من جنسه، فالمساجد أكرم مكان من جنس الأرض، ومحراب الْمُصَلَّى هو الأشرف، وما أُتُخِذَ للعبادة من المجلس، هو الأشرف والأكرم. ثم إن هذا الرزق قد استثار زكريا عليه السلام نحو المزيد من ذكر الله تعالى وشكره، بالتسبيح والحمد الذي يليق به عَزَّ وجل، فَعَبَّر عن فرحه بالاتجاه نحو الطاعة والعبادة ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ مما يفيد أن أفضل أساليب التعبير عن الفرح بنعمة الله تعالى هو المسارعة إلى عبادته، ومنها الذكر، كالصلاة والتسبيح والشكر والحمد له عَزَّ وجل.

ثم بعد أن انتهى الشأن فيما يخص زكريا عليه السلام، ينتقل البيان الكريم إلى ما يخص يحي عليه السلام، فقال تعالى ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ يخبر الله تعالى بأنه وجه نبيه يحي عليه السلام بأخذ الكتاب بقوة، وابتدأ الخطاب له بالنداء ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ فورد هيئة الخطاب له مباشرة بالنداء، وباسمه الذي سماه به سبحانه وتعالى ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ ثم وجه تبارك وتعالى إلى منهجية أخذ الكتاب ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ خذ كتاب الله بجد واجتهاد، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني كتاب الله الذي أنزله على موسى عليه السلام، وهو التوراة ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي: بجد[٣] فخذها بجد واجتهاد. وفي تعيين وتحديد الأخذ بقوة ما يستوفي جميع متطلبات الأخذ، من الفهم والتدبر لمعاني التوراة، والحفظ، والحرص، والعمل بمقتضاها، في ثبات واجتهاد. مما يبين دقة سياق القرآن الكريم، وبلاغة بيانه الذي يعطي كمال المراد بأقل الألفاظ. وكلمة الأخذ تشمل التناول للشيء والإمساك به، ومنه القول: أخذت عن فلان العلم، أو المسألة الفلانية. مما يدل على دقة دلالة الأخذ. وهي تعطي إرشاداً للمتعلم، وخاصة المتلقي لعلم الدين، بأن يأخذ العلم بقوة الحريص عليه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٤٧١-٤٧٣)

(٢)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٤٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٤٧٣)

ومن فضائل يحي عليه السلام أن آتاه الله تبارك وتعالى مزية الفهم في صغره ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ فأعطاه الله تبارك وتعالى الحكمة وحُسن الفهم في صغره، بما يدل على استيعابه ومعرفته لأحكام الله تعالى، والحكم بها وهو في صباه، قبل أن يبلغ مبلغ الرجال. وذكر الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ أنه: الفهم، وقيل: اللب، وقيل: العلم، وقيل: حفظ التوراة وعلمها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكم صبيا[١]

وقد أظهر البيان الكريم انتقال السياق من حال زكريا إلى حال يحي مباشرة، دون ذكر لحالهما في المدة ما بين وقوع الحمل إلى أن بلغ يحي عليه السلام مبلغ الصبا، وذلك لعدم حاجة المخاطبين له، فانتقل السياق مباشرة لما يهمهم وينفعهم، مما يفيد في تحرير الخطاب، وفي المواعظ والإرشاد البعد عن ذكر ما لا نفع للمخاطب فيه، أو أن يتوسع بما يشق على السامعين.

وقد خص الله تعالى نبيه يحي عليه السلام ببعض الخصائص التي تعينه على أداء رسالته بحكمة واقتدار، فقال تعالى ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ فإضافة إلى ما أعطيناه من الحكم صبيا، كذلك أعطيناه ومنحناه من لدنا الشفقة ﴿وَحَنَانًا ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال جمهور المفسرين: الحنان هو الشفقة والرحمة والمحبة، وهو فعل من أفعال النفس[٢] فيكون بذلك حناناً لأهل زمانه، وقد أكد الله تبارك وتعالى أن هذا فضل منه عَزَّ وجل لنبيه يحي عليه السلام، إذ جاء التخصيص بجملة ﴿مِّن لَّدُنَّا ﴾ بما يحمل كذلك التشريف ليحي عليه السلام بتخصيص العطاء له من لدن الله سبحانه وتعالى ﴿مِّن لَّدُنَّا ﴾ وأنه قد تجاوز به إلى ما فوق الطبيعة البشرية. وهذا من كرم الله تعالى عليه، وعلى الناس في زمانه. ومما خَصَّه الله تعالى به كذلك: طهارة وصفاء النفس ﴿وَزَكَوٰةً ﴾ أي طهارة في النفس، بعمل الصالحات، وترك المنكرات، والبركة والنمو والزيادة في الخير، فهي صفة شاملة للطهارة الحسية والمعنوية. قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: أن الزكاة: الزيادة، فالمعنى: وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصِف وذُكر[٣] وفي هذا تزكية من الله تعالى له بحسن الثناء عليه، ومدحه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٩/٥-١٥٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٩/١١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٥)

وكذلك مما تفضل الله تعالى به على نبيه يحي عليه السلام أن جعله مطيعاً لربه عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أي: مطيعاً لله تعالى. فهو مؤدياً لله تعالى ما أمره به، ومنتهياً عما نهاه عنه، راجيا رحمة ربه، ومجلاً وخائفاً من التقصير وحدوث المعصية، ومسارعاً في طاعة الله جَلَّ في علاه. ومن دقائق الوصف الكريم من الله تعالى لنبيه يحي عليه السلام أن جملة ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ تفيد التزامه التقوى، حتى أصبحت صفة ملازمة له عليه السلام، وهذا من كريم فضل الله تعالى أن خصه وأيده بهذه الخصائص. فإن العطاء من الله تعالى. فحري بالمسلم أن يسأل الله تعالى من فضله، ومنها التقوى، اللهم إنا نسألك التقوى، وأن تجعلنا من عبادك المتقين. كما أوضح هذا المدح بهذه الخصال الكريمة أن يجتهد المؤمن في الاتصاف بها، فإنها مكاناً للحمد والثناء من الله تعالى عليها، وعلى من اتصف بها.

وقد جمع البيان العظيم والتوجيه الكريم بين الأخذ بالأسباب، وبين توفيق الله تعالى بما منحه له من الحنان والزكاة والتقوى. فأمره سبحانه وتعالى بالأسباب ﴿ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ وهو ما يجب أن يقوم به يحي عليه السلام، من أخذ الكتاب بقوة، وبين ما منحه الله تعالى من الاختصاص بالمميزات ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ويبين هذا أن الله تعالى جعل فروقاً فردية بين الناس، بما حباهم من الزيادة في بعض الخصائص، كسرعة الحفظ أو الفهم أو التحليل والاستنتاج، أو الخطابة وجميل البيان، أو بعض المهارات في الصناعة والتجارة، فواجب كل أحد أن يستثمر خصائصه بقوة، ولا يحسد غيره.

ومن جميل وكريم ما تصف به يحي عليه السلام أنه كان باراً بوالديه ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ فقد كان عليه السلام باراً، أي: لطيفا بوالديه، ومحسناً إليهما بطاعتهما، ومتجنباً للإساءة والعقوق لهما، فهو كثير البر والإحسان لوالديه ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا ﴾ ولم يكن من صفاته عليه السلام التجبر على الناس، بالاستكبار والتعالي والغرور، والاستخفاف بغيره.

وأضاف عَزَّ وجل إلى طهارته من صفة التجبر طهارته أيضاً من صفة العصيان ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ بما يعطي مزيداً من الإيضاح والبيان لسلوكه عليه السلام، بأنه لم يكن متصفاً بالعصيان بتاتاً، لا لربه، ولا لوالديه، ولا للحق. وفي هذا تأكيد ومبالغة في انتفاء صفة التجبر والعصيان منه بتاتاً عليه الصلاة والسلام، فليس عنده منها شيء قط، لا لربه، ولا لوالديه، ولا للحق. فقد طهره سبحانه وتعالى من ذلك،

وزكاه زكاة من عنده عَزَّ وجل. وفي بيان ذلك من الله تعالى ما يستلهم منه المؤمن أن يتمثل في أخلاقه بما كان من يحي عليه السلام في جميع تلك الأخلاق الكريمة المحمودة.

ثم يختم الله تعالى بيانه عن يحي عليه السلام بإيراد العاقبة الجميلة له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فإنه منذ يوم ولادته محفوف بالسلام والأمان ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ وكذلك له منا السلام والأمان حين يموت ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ حين مفارقته للحياة، وثالثة ذلك ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فله منا السلام والأمن والأمان يوم البعث للحساب، والجزاء يوم القيامة. وفي تخصيص هذه الثلاث المواطن، لأنها مرتكزات الإنسان، وعلامات ودلالات لما بينها. قال سفيان بن عيينه رحمه الله تعالى: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاث مواطن، يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره، فخص الله تعالى يحي فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة[١] فنسأل الله تعالى الأمن والسلامة يوم نموت ويوم نُبعث، وما بقي لنا من حياة الدنيا.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى قصة زكريا ويحي عليهما السلام، وما فيهما من الآيات العظيمة انتقل السياق الكريم إلى قصة مريم بنت عمران عليها الصلاة والسلام، وبيان ما في ذكرها من الآيات العظيمة. وقد توجه الخطاب عن بيان قصتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الله تعالى، القرآن العظيم الذي أُنزل عليك قصة مريم بنت عمران، وذلك بتلاوة خبر مريم عليها السلام ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ فعَرِّف

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٥)

المُخاطَبين بقصتها العظيمة التي وردت في القرآن العظيم، ليعرفوا كمال قدرة الله تعالى ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ حين تنحت متباعدة عن أهلها، وقومها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ وذلك بتنحيها تجاه المشرق من منازلهم. ولم يحدد ويُعيَّن المكان من الشرق، لأنه لا حاجة للمخاطب في معرفته تحديداً، إذ ليس الشأن والأمر في تحديده، بل الشأن في الانتباذ الذي يستوفي الاعتزال مع البُعد. فلم يُشغل البيان ذهن المخاطب بما هو خارج الهدف والمقصود، وهذه دقة بيانية في منهجية تحرير الكلام والبيان.

وفي عطف قصة مريم على قصة زكريا ويحي عليهم السلام إظهارٌ لتقارب دلالة المخالفة فيهما للسنن التي جعلها الله تعالى في إنجاب الولد. ليعرف العباد أن الذي وضع السنن هو الذي يعطلها كيف يشاء، وهو الذي يخرج بالعباد عنها متى شاء سبحانه وتعالى، فإن لله تعالى القدرة الكاملة، والهيمنة والسلطان على ما وضعه عَزَّ وجل من القوانين والسنن الكونية، فيديرها كيف يشاء، بمخالفة ما اعتاد العباد عليه. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أنها مريم بنت عمران، من سلالة داود عليهما السلام، وكانت من بيت طاهر، وطيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك. ونشأت في بني إسرائيل نشأت عظيمة. فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة والتبتل، وكانت في كفالة زوج أختها، وقيل: خالتها. وزكريا نبي بني إسرائيل ذلك الوقت، وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما أبهره، فكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقاً. فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء[1]

وفي التنصيص على ذكرها ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ رفعة لمقامها، بأن يستمر ذكرها من بين النساء في كتاب الله تعالى، فيتلوه العباد في مشارق الأرض ومغاربها، مما يبين إشادة الله تعالى بصلاحها وعفتها وكرامتها عند ربها. وكم من الناس يموت ويُخَلِّدُ اللهُ تعالى ذكره بين الناس بما كان منه، كالقادة في الخير، وفي نشر الإسلام، والحكم والولاية، وكالعلماء الذين خلدهم الله تعالى بمنجزاتهم العلمية، واجتهاداتهم في نشر العلم.

وبدأ السياق الكريم بما يشد الانتباه لقصتها ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أولا: بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتلاوة قصتها من القرآن الكريم، ففي الأمر دلالة على العناية بشأنها، وأن في ذكرها أمراً، أو أموراً ملفتة للنظر والفكر بالتأمل، وأنها جديرة بأن يُلقي المتلقي سمعه إلى قصتها. وثانياً: شد الانتباه والتشويق: ببيان أمر تنحيها عن قومها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٢٠-١٢١)

﴿ شَرۡقِيّٗا ﴾ فاتجهت نحو المشرق، الأمر الذي يشد الانتباه لمتابعة شأنها، فلماذا تنحت عنهم؟ قال الإمام ابن جرير، ونقل عنه الإمام القرطبي رحمهما الله تعالى: وإنما خص الشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق، لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيراً مما يلي المغرب، وكذلك ذلك فيما ذُكر عند العرب[1] ومعنى ﴿ ٱنتَبَذَتۡ ﴾ أي: تنحت، وهو الاعتزال بالتنحي والابتعاد.

قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والانتباذ: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس[2] ثم يتدرج البيان مع شَد الانتباه، وإثارة التشويق إلى ما بعده من البيان ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ فاتخذت ما يسترها عنهم ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ أي: اتخذت ما يسترها عنهم، بما يفيد الاعتزال عنهم، حتى لا يرون شأنها في وحدتها وعبادتها لربها تبارك وتعالى، بُعداً عن الرياء، بما يفيد الإخلاص لله تعالى في عبادتها لربها تبارك وتعالى، وفي هذا تجاوب مع قوله تعالى لها في سورة آل عمران ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ وفي اتخاذ الستر بينها وبين أهلها ما يدل على أنها لم تبتعد عنهم كثيراً، بل قريبة منهم، بحيث لو لم تتخذ الستر من دونهم لرأوها، وشاهدوا حركتها، ولذلك اتخذت الحجاب الذي يحجبها عنهم. كما أن جملة ﴿ مِن دُونِهِمۡ ﴾ تفيد القرب، أي ليست ببعيدة عنهم.

فبعد أن تنحت واتخذت مكاناً شرقياً، وجعلت حجاباً يسترها، يخبر الله تعالى بأنه عَزَّ وجل قد أرسل لها جبريل عليه السلام ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ وهو جبريل عليه السلام الذي تمثل لها في صورة إنسان ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾ فقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى مريم عليها السلام، وسماه عَزَّ وجل ﴿ رُوحَنَا ﴾ التي تحمل التشريف والتكريم ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ أي: تَكَوَّن على صورة إنسان، وتدل كلمة ﴿ فَتَمَثَّلَ ﴾ أي: أن الله تعالى قد منحه القدرة على أن يتشكل ويتصور، ولا يبقى على هيئته التي خلقه الله تعالى عليها ﴿ فَتَمَثَّلَ ﴾ بما يفيد الخروج عن الهيئة الأصلية، واكتساب هيئة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٤٨٤-٤٨٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٦١)
(٢) الزمخشري: الكشاف (٣/٨)

أخرى، وهي الهيئة البشرية ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي: معتدل الهيئة ﴿ سَوِيًّا ﴾ على أفضل وأحسن ما يكون عليه الإنسان من الصورة في الخلقة والخُلُق. حتى لا تضطرب منه، ولا تنزعج، فتتلقى منه ما أمره الله تعالى به بطمأنينة. وكونه تمثَّل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ دليل على المبالغة في التشكل إلى درجة الوصول إلى أحسن ما يكون عليه الإنسان من الخلقة والخُلُق. وهذا دليل على لطف الله تعالى وعنايته بها عليها السلام.

فلما رأت مريم جبريل عليهما السلام في صورة الرجل السوي ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ إني استجير بالرحمن منك إن كنت من الذين يتقون الله تبارك وتعالى، فأنا التجئ إلى الله الرحمن الرحيم من أن تنالني بسوء، فلا تتعرض لي أيها الإنسان. فخوفته بربها تبارك وتعالى، واستعانت بخالقها، القادر على دفع السوء عنها. مما يدل على كمال عفتها عليها السلام، وقوة إيمانها ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ فأنا رسول من الله إليك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ فطمنها ابتداء بأنه رسول من الله تعالى إليها، فلا تخافي، فأبعد عن ذهنها ما قد تظنه من السوء. بل ومن دقائق البيان أن جبريل عليه السلام حصر مجيئه في الرسالة التي يحملها فقط ﴿ إِنَّمَآ ﴾ وليس وراء ذلك شيء آخر، وأن الغاية من الرسالة هو ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ لأهب لك بكرمه ومنه وقدرته سبحانه وتعالى غلاماً. كما أفاد ذلك الحصر والقصر على أنه من الملائكة ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ وليس من البشر، لأن الملائكة يتمثلون بصورة الإنسان كما جاء في حديث جبريل، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وسأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن أركان الإسلام، ثم عن أركان الإيمان، ثم سأل عن الإحسان، ولما انصرف قال النبي صلى الله عليه وسلم (يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1]

وأن الغاية من الرسالة هو ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ لأهب لك بمنه سبحانه وتعالى وكرمه وقدرته غلاماً، وصفة هذا الغلام أنه ﴿ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أي: طاهراً من الذنوب. وكونه نسب الهبة له فباعتبار أنه مأمور بالهبة، أي: لأهب لك بأمر الله تعالى غلاماً. فأصبح هو السبب المباشر. وأورد ابن كثير

(١) مسلم، صحيح مسلم (١/٣٧-٣٨)

رحمه الله تعالى قراءة أخرى (إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً) وقال ابن كثير: وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح[١] وبالتالي كلا الدلالتين صحيحة.

ثم تعجبت من هذا العطاء للغلام من غير زوج ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ سؤال تعجب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ كيف يكون لي غلام ولم تكن أسبابه واقعة، فأولاً: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ فلم يحصل أن مسني رجل عن طريق الزواج الذي أباحه الله تعالى، وهو سبب في الإنجاب، وكذلك ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ولم أكن من حالي أن كنت فاجرة بالزنا، فيحصل الولد، فنفت عن نفسها البغي والفجور، وأثبتت حصانة نفسها وعفتها، وقوة دينها، وخوفها من ربها، وقوة إيمانها وطاعتها لله جَلَّ جلاله.

فأجاب جبريل على استفسار وتعجب مريم بجواب بليغ بديع ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ فبدأ الجواب بتقرير ما نفته مريم عليها السلام عن نفسها، من أنه لا زوج لها، ولم تكن امرأة بغي وفجور ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾ أي: الأمر كذلك كما ذكرتي يا مريم، من أنه لم يمسسك بشر، لا عن طريق الزواج، ولم تكوني يوماً من الأيام بغياً، ولكنها إرادة الله تعالى الذي خلق الأسباب ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ فإن ربك الله تعالى قال ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي: سهل يسير، لا صعوبة فيه، كما هي السنن والأسباب، فإن الله تعالى هو الذي جعل السنن والأسباب، وهو الذي يعطلها إذا شاء، وهو الذي بقدرته يدبر ويُكَوّن الأشياء، فيهب لك غلاماً من غير أسباب الإنجاب للولد. وفي هذا ما يبين أن الأسباب لا تعمل إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره، وأنها لا تعمل من ذاتها، باستقلالها عن إرادة الله تعالى ومشيئته. فلا تقف أيها المؤمن مع الأسباب فقط، بل اربط الأسباب بمشيئة الله تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. مما يبين ويوضح أهمية الالتجاء إلى الله تعالى مع الأخذ بالأسباب، لأنه عَزَّ وجل هو مهيأ الأسباب، فكم من ساعٍ لا يجد مراده، وكم من ساعٍ يجد مراده بأيسر الأسباب، فإن في ذلك تربية إيمانية عظيمة.

ثم يخبر الْمَلَكُ جبريل عليه السلام بخصائص هذا الغلام، وعلة وجوده من غير أب، لتطمئن وتستريح مريم عليها السلام بمعرفة تلك العلل والأسباب، فأولاً: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ لنجعل وجود الغلام

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢١/٣)

منك من غير وجود الأسباب آية عظيمة، وحجة ودلالة بينة على عظيم قدرة الله تعالى في تصريف الأمور على غير ما تكون به الأسباب، فيكون آية وحجة للناس على قدرة خالقهم، فتُوجِب عليهم الإيمان. فكما جعلنا الأسباب لوجود الغلمان، جعلنا الغلام عيسى من غير وجود الأسباب. وثانياً: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ولنجعل هذا الغلام الموهوب لك من ربك من غير أب، رحمة عظيمة لمن آمن به، واتبع هديه الذي أُرْسِلَ به من ربه تبارك وتعالى. وثالثاً: أن هذا الحدث ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أمراً قد قدره، وكتبه سبحانه وتعالى وقضاه بحصوله، فقد قضاه الله تعالى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك. بما يفيد أنه لا رجعة في ذلك، وعليك أن تتقبلي ذلك وتتهيئين لهذا الأمر العظيم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان حمل مريم بعيسى عليهما السلام ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فحصل الحمل الذي أوضحه وبينه اللهُ تبارك وتعالى في سورة الأنبياء ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ وكذلك في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فذكر غير واحد من علماء السلف أن الْمَلَك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى[١] وحين حان وقت الولادة بعيسى عليه السلام ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحت مكاناً قاصياً عن الناس، منفردة بالحمل بعيداً عنهم. وفي تنحيها عن الناس، وابتعادها عنهم، معالجة لحالها التي هي فيه: من الحمل، وما يمكن أن يدور من الكلام بين الناس في شأنها، فعالجت شأنها بالبعد عنهم، حتى يقضي الله تعالى أمرها.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٢/٣)

ثم تنطوي فترة الحمل دون ذكر لها، لأن ليس فيها ما يهم المخاطب، فينتقل الخبر من الله تعالى إلى ساعة الولادة بعيسى ابن مريم عليه السلام ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فجاءها مخاض الولادة بعد مدة الحمل ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ فألجأها وأحوجها ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وهو: طلق الولادة، ووجعه أن تتجه إلى جذع النخلة. وتفيد كلمة ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ من الالجاء والحاجة والاضطرار. فأحوجها المخاض ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: إلى ساق النخلة الذي تقوم عليه، ويتفرع منه جريدها، وذلك لتستند إليه وتتمسك به على وجع الولادة، ولتستتر به. وفي تلك اللحظة اعتراها الهم، إذ كيف تواجه الناس بابنها عيسى عليه السلام، وكيف سيقتنع الناس بما لم يروه من جبريل عليه السلام ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فمن شدة حيائها من كلام الناس وتهمتهم لها أنها تمنت لو قد ماتت قبل هذا الحدث ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ وكنت في عداد المتروكين المنسيين عند الناس، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: النسيّ: ما من حقه أن يطرح ويُنسى[1] لحقارته، وعدم الاهتمام والاكتراث به، لهوانه عند الناس، وهو مما يُنسى بتركه، وعدم تعلق القلب به، وكلمة ﴿مَّنسِيًّا ﴾ تفيد الترك لذلك الذي من حقه الترك وعدم الاهتمام به. وتفيد جملة ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ المبالغة في نسيان شأنها وتَذَكُّرِ الناس لها. فتمنت لو كانت ممن لا يُؤبه به، ولا يهتم الناس به، فينسونه، باعتبار أن من حقه النسيان. مما يبين قوة أثر كلام الناس على النفس البشرية، وقوة حيائها، مما يوجب على الإنسان أن يصون نفسه عن أعراض غيره، وألا يتكلم ويخوض فيها، فإنه ألم شديد على النفوس، فيتوخى ويحذر المؤمن أن يشيع ويتحدث فيها.

وتمنيها الموت ليس على وجه المستقبل، ولا على وجه الحال التي هي فيها بعد ظهور الحمل، بل تمنيها الموت على سبيل الماضي، أي قبل هذا الحدث ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ فلم تتمنى الموت عند حدوث الحمل أو حدوث الولادة، ولا أن تموت بعد الولادة، أو فيما هو مستقبل من حياتها. بل على سبيل التمني فيما مضى، وأكدت ذلك بقولها ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي: وكنت في عداد المنسيين الذين طال الزمن بهم حتى نسوهم الناس، ولم يَعُد لها ذكر في حياة الناس، وفيما يتذكرون من الثمين والمهم، ليدل على البعد الزمني

(١) الزمخشري: الكشاف (١١/٣)

السحيق الذي تمنته عليها السلام. وليس في ذلك كراهة منها لحكم الله تعالى وقضائه، لأنه لم يتعلق بالحال أو المستقبل.

وفي هذه الحالة النفسية الشديدة التي تعيشها يناديها الملك جبريل ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ فيظهر أنها في مكان مرتفع، فناداها جبريل من مكان أدنى وأنزل من مكانها، فيكون جبريل عليه السلام في الأرض، التي هي أخفض من المكان التي كانت هي عليها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ ﴾ وقد اختلف أهل التفسير في المنادي، بين جبريل وبين عيسى عليها السلام: فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ناداها جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها[١] وعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: أي: من تحت النخلة، الْمَلَك[٢] وكان الفراء رحمه الله تعالى يقول: ما خاطبها إلا الْمَلَك على القراءتين[٣] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقتادة: أنه الملك جبريل عليه الصلاة والسلام، أي ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: عيسى ابن مريم، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[٤] والراجح أن المتكلم هو جبريل وليس عيسى عليهما السلام. والله تعالى على كل شيء قدير، لأنه لو تكلم عيسى في تلك اللحظة لربما زاد ذُعْرَهَا ورُعْبها، وحصل لها الخوف، خاصة وأن الذي ناداها كان عند حالة المخاض، فلم يثبت نزول الجنين وخروجه من بطن مريم عليها السلام. فتمنيها أن تكون نسياً منسياً هو حال أصابها المخاض ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ وجاءها الخطاب من جبريل بعد قولها ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ ويؤكد ذلك ما أخبرها به المتكلم في هذه الآية الكريمة، والتي بعدها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي ﴾ فأرشدها إلى عدم الحزن لما حصل من الحمل، وقد قُضي الأمر فيه. فيكون الإرشاد ممن أُرسِل إليها، وهو جبريل.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٣/١٥)

(٢) المرجع السابق (٥٠٢/١٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٦/٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٣/٣)

والحزن متعلق بما مضى، وهو توجيه متناسب مع حالتها التي انتهت بالولادة، وكذلك عندما قالت ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فإن في ذلك إرشاداً لها على أن لا يكون في خاطرها الحزن ودواعيه الذي تمنت به أن تكون قد ماتت قبل هذا وكانت نسياً منسيا. ثم أخبرها بما يزيدها طمأنينة من العناية الربانية ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي النهر الجاري، وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه النهر الصغير، قاله جمهور المفسرين، واللغويون[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى قول ابن عباس رضي الله عنها: أنها حزنت لجدب مكانها الذي ولدت فيه، وعدم الطعام والشراب والماء الذي يُتطهر به، فقيل: لا تحزني قد أجرينا لك نهراً، وأطلعنا لك رطباً، قاله أبو صالح عن ابن عباس[٢] وبالتالي لِمَا تحزني وقد أكرمك الله تعالى بما يسرك من الماء وطعام الرطب. وهذا من لطف الله تعالى بها، أن أجرى لها الماء الذي تغتسل منه وتشرب. وأطلع لها الرطب لتأكل منه. ومن دقائق البيان أن التوجيه لها كان عن الحزن ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ ولم يذكر لها الهم الذي ستحمله عند مقابلة قومها، لأن الله تعالى سيخلصها منه، بأن يجعل عيسى عليه السلام ينطق ويتكلم على ما سيأتي من البيان الكريم. وهذا من دقائق البيان وإعجاز دلالاته ومعانيه.

ثم أرشدها جبريل عليه السلام إلى الغذاء بعد أن أرشدها إلى الماء، وشجعها على إزالة الحزن، فجمع الله تبارك وتعالى لها بين المعالجة القلبية والنفسية، وبين المعالجة الحسية من الأكل والشرب والاغتسال ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ وحركي جذع النخلة، بأن تأخذيه إليك، بطريقة الاهتزاز، يميناً وشمالاً، أو جهتك والجهة المقابِلَة ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لأن الهز لا يكون إلا بجهتين متعاكستين. وكون الهز متعلق وواقع بجذع النخلة، وهو من أصعب ما يمكن أن تقوم به، خاصة وهي والدة تلك اللحظة، بما يفيد أن الله تعالى ألان لها جذع النخلة، فأصبح من مقدورها، ومن غير مشقة، فبمجرد هزها للجذع ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فإنه حال هزك لجذع النخلة يتساقط عليك ﴿رُطَبًا﴾ وهو الرطب الطري اللين الذي لم يلحقه الجفاف ﴿جَنِيًّا﴾ أي: حديث الانفصال، قال الفراء رحمه الله تعالى: الجني: الْمُجتَنَى[٣] أي: أنه في حكم المقطوف لها، لأنها لم تبذل فيه جهداً لتحصيله، وكذلك كأنه مقطوف مباشرة، لم تتعب في قطفه، وتبذل فيه جهداً. وفي هذا مزيد تكريم لها عليها السلام، سواء من حيث طواعية الجذع لها،

(١) المرجع السابق (١٥٦/٥)

(٢) المرجع السابق (١٥٦/٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٧/٥)

أو من حيث جودة التمر، وفوائده للنفساء، وتساقطه عليها، وكذلك كونه ﴿ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ مما يشعرها بالعناية الربانية الذي يُزيل عنها الحزن، لأن التكريم والعناية تدفع الْمُعْتَنَى به إلى تناسي الحزن، لِمَا دخل عليه من الفرح والسرور، فكيف والمعتني بها هو الله تبارك وتعالى، فإنه يزيدها قوة، ورباطة جأش. والله تبارك وتعالى قادر على أن يُسقط عليها الرطب من غير هزها للجذع، ولعل في ذلك أهمية الأخذ بالأسباب، ولو بالقدر اليسير، ليتعلم المؤمن أهمية الأخذ بالأسباب، ولو باليسير منه، وعلى الله تعالى تطويع الأمور بما يشاء عَزَّ وجل. ولعل فيه كذلك اشغال بالها عما كانت تفكر فيه، لأن في الاشتغال ما يقطع التفكير، ويُنسي الإنسان ما كان يشغل باله ويفكر فيه. وهذا من عظيم تدبير الله تعالى وعنايته بها عليها الصلاة والسلام.

ثم يتوجه البيان إلى إرشادها عليها السلام بما يلزم أن تقوم به، من العناية بنفسها ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فتوجه البيان الكريم إلى ما يتحقق به المعالجة الجسمية، والمعالجة النفسية والقلبية التي يتحقق بها ما تَقَرُّ به عينها ﴿ فَكُلِي ﴾ من الرطب المجني لك ﴿ وَٱشْرَبِي ﴾ من النهر، وهذان متعلقان بالبناء الجسمي، ثم يأتي التوجيه لما تحصل به الطمأنينة النفسية والقلبية ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ وطيبي نفساً، ولا تغتمي، واتركي عنك ما أحزنك وأهمك، وافرحي بولادتك، وخُصَّت العين بالقرار لأنها موطن الاستشراف والتطلع والترقب بالنظر، فإذا اطمأن الإنسان استقرت عينه، وهدأ نظره، وأما الخائف فإن عينه تستشرف وتتطلع يُمْنَةً ويُسَرَةً. وهذا من دقائق البيان في تحديد مركز وإشارات وعلامات الاطمئنان.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى المزيد مما تطمئن به عليها السلام، فأرشدها الله سبحانه وتعالى عن طريق جبريل إلى المنهجية والطريقة التي تتعامل بها مع قومها حين تَقْدُمُ عليهم بابنها عيسى عليهما السلام ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ وهو من يسألها عن شأن المولود الذي تحمله ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فقولي له بأنك نذرت لله سبحانه وتعالى ﴿ صَوْمًا ﴾ أي: صمتاً، ويؤكد هذا المعنى ما بعده ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ ويحتمل أنه صوم عن الأكل والشراب والكلام، ولما أنها في حالة ولادة، وحاجتها إلى لطعام والشراب ماسة، فإن أقوى ما يكون من دلالة الصوم أنه الصمت وعدم الكلام. وفي هذا القول منها لهم، ما يحمل الحكمة، ويحمل المفاجأة لهم، بما سينطق به عيسى عليه السلام، وتكليمه لهم مباشرة وهو في المهد صبيا. فعللت صمتها عن مخاطبتها لهم بأنه نتيجة لهذا الصوم عن الكلام

﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فلن أتكلم اليوم مع أي إنسان البتة. مما يفيد أن الصمت علاج لأقوى القضايا أحياناً، إذ يُعطي الصامت مساحة وسِعَةً من الوقت، لتهدأ القلوب والعقول. ولكن في هذا الموقف سيكون المتكلم هو عيسى عليه الصلاة والسلام كما سيأتي البيان الكريم به.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)
قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾

ينتقل السياق والبيان الكريم إلى مشهد دخول مريم على قومها، وهي تحمل مولودها عيسى عليهما السلام ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ فجاءت بعيسى عليهما السلام حاملة له، بما يفيد أنها جاءت به لقومها مبكراً، ولم تتأخر كثيراً بعد ولادتها. ومن دقائق بيان مجيئها لهم أن السياق الكريم لم يكتف بجملة ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ ﴾ بل أُضيف ما يتبين به أنه كان صغيراً محمولاً ﴿ تَحْمِلُهُۥ ﴾ لتقرير وبيان أنها لم تغب عنهم بعد ولادتها زمناً طويلاً حتى صار يمشي، بل بَكَّرت في المجيء إليهم وهي تحمله. وهذا من الإعجاز البياني في دقة الوصف الذي يزيل ويمنع كل احتمال يذهب بالسياق إلى غير حقيقة المشهد. وفي مجيئها لقومها بيان لثقتها بالله تعالى من أنه سيبرئها من التهمة.

فبادرها قومُها بالسؤال والاستفسار الاستنكاري، لما أصابهم من الدهشة الطبيعية بالنسبة لهم، إلا أنهم فجروا في سؤالهم حين اتهموها قبل أن يسمعوا منها ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ فقد تجرأوا في الحكم، ولم يشفع لها عندهم تدينها، وعفتها وصلاحها ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ لقد جئت شيئاً منكراً عظيماً وعجيباً نادراً، ومختلقاً ومفتعلاً، يخالف ما أنت عليه، أي أنك افتريت بهذا الغلام الذي تحملينه فرية عظيمة. أي: تهمة لها بعدم شرعيته. وهذا بهتان عظيم منهم لها عليها الصلاة والسلام، قبل

أن يسمعوا منها، بإصدارهم الحكم الجائر. مما يبين أهمية السؤال والاستفسار، وعدم المبادرة بإصدار الأحكام على الغير من غير علم ودليل، فإن ذلك مسلك يؤدي بالإنسان إلى الوقوع في عِرض غيره بالطعن والتهمة.

ثم استمر قومها في لومها بأسلوب المماثلة التي تفضي إلى أن هذا لا ينبغي أن يكون من مثلك ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ فآخَوا بينها وبين رجل صالح من قومها، اسمه هارون لمشابهتها له في الصلاح والتقوى ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ يا أخت هارون في التدين والصلاح. فعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، يُسَمَّى هارون، فَشَبَّهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح[1] ثم انتقلوا إلى صفة أبويها الزاكية ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ فما كان أبوك عمران ﴿ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ ﴾ أي: متصفاً بالسوء، فيكون منه الزنا. فنفوا عنه عموم السوء ﴿ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ ولم تكن أمك حَنَّة زانية، وهذا تزكية بصلاح أم مريم وأبوها عمران عليهم السلام، فخالفتي السيرة الأصلية لأصلك. ليستخرجوا بهذه المقدمة السؤال عن هذا الغلام، من أين لك هذا الولد؟ وفي هذا الأسلوب الذي اشتمل على اللوم والتوبيخ والتهمة، ما يقررون به أن الذي معها هو نتيجة الزنا، ولكن بأسلوب إثبات مسلك صلاح أبويها والرجل الصالح الذي يُضرب به المثل عندهم ذلك الوقت. وفي هذا تزكية لأبويها، وتزكية لهارون الرجل الصالح، وتزكية لها على الأصل.

وبدأت مريم عليها السلام الجواب بالإشارة إلى ابنها عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ فأشارت لهم إليه ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ ﴾ أي: كلموه، ووجهوا خطابكم وعتابكم وسؤالكم له، عن كيفية حصول الحمل به، ليسمعوا منه الجواب مباشرة. وقد أحدث عندهم هذا الرد من مريم عليها السلام الاستغراب والإثارة. مما يبين أنها أرادت إظهار الآية العظيمة من هذا الغلام الرضيع بأسلوب المبالغة، كونه خارج عن السنن التي جعلها الله تعالى في البشرية، وتدفع كذلك عن نفسها التهمة.

فبادروها بالسؤال ﴿ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ وهو استفهام يفيد الإنكار والتعجب مما أشارت إليه لهم بمخاطبة الصبي، فإن الذي في المهد صبي رضيع، فكيف نكلمه ونخاطبه، وكيف سيخاطبنا، لقد أحالتهم إلى أمر مستحيل في عُرف وسنن البشرية.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٣/١٥)

ويظهر من السياق أنهم لم يكلموه بالسؤال، لاستهجانهم هذا التوجيه من مريم عليها السلام، فكيف نكلم من لا يتكلم؟ مؤكدين ذلك بأنه ﴿فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يستحيل استجوابه، ويستحيل أن يُجيب، فهو في الْمُضْطَجَعِ الذي يكون للرضيع، سواء كان حِجْرَ أمه، أو السرير الذي يُوضع للصبي الرضيع، الأمر الذي يستحيل منه النطق والكلام، فضلاً من أن يتحدث ويخبرهم بخبر حمله وولادته. وفي وصفهم لعيسى عليه السلام بأنه ﴿فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إثبات مع البيان أنها أتت به مبكراً لأهلها وقومها.

وفي هذا الموقف الذي امتلأت به قلوبهم وعقولهم بالاستغراب من أمر مستحيل، تأتي قدرة الله تبارك وتعالى، فَيُنْطِق اللهُ عَزَّ وجل الصبي عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فتوجه عيسى بالكلام لهم، وهو صبي، فقرر أولاً أن العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، وأنه عبد لله عَزَّ وجل ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ لينتفي بذلك أن يكون ابناً لله عَزَّ وجل، فهو عبد لربه تبارك وتعالى مثل بقية العباد من الناس. ثم ذكر ما خصَّه الله تعالى به ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: قضى الله تبارك وتعالى بأن يُعطيني الكتاب، فعن عكرمة رحمه الله تعالى، أي: قَضَى أن يُؤتيني الكتاب فيما قضى[1] والخصيصة الثانية ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي: أن الله تعالى قضى لي أن أكون نبياً من الأنبياء. والخصيصة الرابعة التي قضى لي بها سبحانه وتعالى هو ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فإضافة إلى نبوتي فقد جعلني الله تعالى ﴿مُبَارَكًا﴾ وهي صفة تستجمع مجامع الخير، من تقديم عموم النفع الذي ينتفع الناس به، كتعليم الخير للناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، وإرشاد الضال، ونصرة المظلوم، وغيرها مما يشمله النفع، كما أفادت كلمة ﴿مُبَارَكًا﴾ أنها صفة مقترنة به، فلا تنفك عنه في أحواله وشؤونه وتعاملاته مع غيره عليه السلام. فهي تسايره أينما حل وارتحل ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وهذه البركة ليست مقصورة على موطن محدد ومعين، بل أين ما حَلَّ وارتحل، فهي نعمة ملتصقة به عليه الصلاة والسلام

ثم يُخبر بأنه مأمور من الله تعالى بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وأفادت كلمة ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ التي هي على نسق ﴿وَجَعَلَنِي﴾ أفادت الأمر من الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٩/١٥)

فيما قضى من الأمر والتقدير، فأوصاني ربي بإقامة الصلاة والمحافظة عليها، وكذلك تأدية الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فأقوم بذلك في حياتي الدنيوية. وفي هذا دلالة على أن دين الله تعالى كله خير، وأنه يصطفي من يشاء، كيفما شاء، وأنه على كل شيء قدير، وأن قدرة الله تعالى لا تقاس على قدرة المخلوقين أبداً.

ومما قضى به سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم عليهم السلام كمال الأخلاق ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ فجعلني ربي محسناً لوالدتي أكمل الإحسان وأتمه، فأقوم بما يجب لها من حقوق البر. وكلمة ﴿وَبَرًّا﴾ أفادت كمال الإحسان وأجمله وأفضله، والتوسع فيه، لأنها أولاً: هبة من الله تعالى له في كمال البر، وثانياً: لأن البر عام، يشمل ويجمع الوفاء والصدق والطاعة والفضل، والتوسع في الخير والإحسان، والطاعة، والتفاني في جلب الخير ودفع الشر، والتكلُّف في ذلك. ومن دقائق البيان إفراد أمه بالبر ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ لأن ليس له أب، وهذه من دقائق البيان وكماله وإعجازه ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولم يجعلني ربي ﴿جَبَّارًا﴾ مترفعاً، متعاظماً، ومتكبراً على غيري، وهو الذي يرى ما له من حقوق، ولا يرى لغيره من حق. وكذلك لم يجعلني ﴿شَقِيًّا﴾ خائباً خاسراً من الخير، وعاصياً لربه بالذنوب والمعاصي، فأقع في الشقاء الذي هو ضد السعادة. وهي صفات كريمة خصه الله تعالى بها. وللمؤمن أن يجتهد في التحلي بتلك المكارم مع والديه، وفي نفسه، ومع غيره، وقبل ذلك في طاعته لربه تبارك وتعالى.

ولما بَيَّنَ عيسى ما قضى الله تعالى له به من الفضائل العظيمة، ختم ذلك بما يتحقق له من السلامة والأمان ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ فيخبر بما قضى الله تعالى له من السلامة في أحوال الإنسان الثلاثة التي يمر بها، والتي تعني كمال السلامة ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ فقد حقق الله تعالى لي السلامة من كل شر، حين ولدتني أمي، وكذلك قضى لي ربي بالسلامة والأمن حين وفاتي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ وكذلك ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ فلا خوف علي يوم يبعث اللهُ تبارك وتعالى العباد للحساب والجزاء. وهذا دليل على منزلته عند الله تعالى عليه الصلاة والسلام، وفي هذا تنويه وتحذير، وإعلام لقومه، بأن عيسى عليه السلام مكان الحفاوة والتكريم عند الله عَزَّ وجل. وفي هذا البيان من عيسى عليه السلام وهو في المهد صبياً ما يبرئ ساحة أمه، ويُثبت لها المنزلة والمكانة الرفيعة عند ربها، إذ اختارها وخصَّها بهذا الحمل الذي يعتبر آية من آياته سبحانه وتعالى، وحجة عظيمة على قومها، بأن عيسى نبي الله جَلَّ في علاه، وأنه عبد لله عَزَّ وجل، وليس ولداً لله جَلَّ في علاه كما زعم جُهال النصارى. كما أن في كلامه بهذا

الكلام معجزة حدثت أمامهم، تُوجِبُ عليهم الإيمان بعيسى نبياً من الله تعالى. كما يبين هذا أن الذي خلق القوانين والعلل والأسباب قادر على أن يجريها على خلافها كيف يشاء. مما يوجب على العباد التذلل له سبحانه وتعالى، والانقياد لشرعه.

ثم يقرر الله تبارك وتعالى للعباد حقيقة أمر عيسى وأمه عليهما السلام بالجزم والقطع أنه على ما تم ذكره وتفصيله وبيانه ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ فذلك الموصوف بتلك الصفات التي قصصناها عليك أيها الرسول هو عيسى ابن مريم ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ بلا شك ولا ريب، وليس كما تزعم اليهود والنصارى من الباطل، قال قتادة رحمه الله تعالى: امترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله، وثالث ثلاثة[١] فليس الأمر كما زعموا، بل إن هذا هو ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ﴾ قول الحق الذي لم يعتريه ويَشُوبُهُ باطل ولا زيف ولا تحريف، بما يفيد الجزم بأن كل ما خالفه فهو باطل ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ إنه قول الصدق الذي يختلف ويشك فيه المبطلون الشَّاكُّون، فيجادلون بشكهم وباطلهم الحق والحقيقة، ويخترعون ويختلقون غير الحق والصواب فيه.

ثم ينزه الله تبارك وتعالى ذاته المقدسة مما لا يليق بمقامه وجلاله عَزَّ وجل ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإنه لا يليق ولا ينبغي ولا يستقيم ولا يصح أن يتخذ الله تعالى ولداً، وهو الخالق الغني عن كل مخلوق ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ ﴾ وفي هذا نفي قاطع أن يكون من صفاته سبحانه وتعالى اتخاذ الولد، فإنه يُبطل بذلك قول النصارى: بأن عيسى ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وبما يقرر به وحدانية الله عَزَّ وجل، وأنه لا يستحق العبودية إلا هو، لا شريك له. ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾ فإن مقامه العظيم عَزَّ وجل منزه ومُبرء عما يقوله هؤلاء الجاهلون في حق جلاله وجلالة قدره القدير، ومقامه العزيز سبحانه وتعالى علواً عظيماً، الذي ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي إذا أراد شيئاً لا يستعين بأحد فيه، وإنما ﴿ يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيأمر بالشيء فيكون كما أمر، من غير كلفة ولا عناء ولا مشقة، فمن هذه قدرته كيف له أن يتخذ ولداً، سبحانه عما يقولون ويفترون علواً كبيراً، وإنما يتخذ الولد ويطلبه ويرجوه من يحتاج إليه، ليعينه ويساعده فيما يريد ويحتاج إليه، أما الغني المغني فلا يحتاج إلى ذلك البتة. فكيف تقيسون الخالق على المخلوق، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون ويفترون علواً كبيراً.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٢/٥)

ويفيد سياق جملة ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ المبالغة في نفي الولد نهائياً، وقطع هذا الأمر من أصله، فهو نفي قاطع من أساسه، إذ ينتفي به الولد. فقد نفى حرف النفي ﴿ مَا ﴾ الفعل ﴿كَانَ ﴾ نفياً تاماً، إذ لا يليق بجلال الله تعالى وعظمته وعظيم سلطانه اتخاذ الولد ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ بما يفيد أنه لا ينبغي أصلاً أن يكون لله تعالى الولد، وهو الله تبارك وتعالى الفرد الصمد الذي لا يليق بمقامه وجلاله أن يكون له الولد، وهو المستغني عن كل أحد. وكذلك في سياق قوله تعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ إذ نفت جملة ﴿مِن وَلَدٍ ﴾ أي نوع من الولد، حتى الواحد من الولد، فإنه منتفي عن أن يتخذه الله سبحانه وتعالى، قال الزجاج رحمه الله تعالى: ﴿مِن ﴾ مؤكدة، تدل على نفي الواحد والجماعة[1] بما يفيد ولم يتخذ ولا حتى ولداً واحداً. كما أن الإنسان مخلوق للخالق، فكيف يكون المخلوق ولداً لربه وخالقه المنفرد في كل شيء؟ إنه تقرير ومحاجة بليغة في نفي الولد عن الله تعالى. فسبحان الله لا إله إلا هو، وحده لا شريك له. فكيف يتخذ ولداً ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي هذا شأنه من الجلال وكمال القدرة والسلطان، كيف يتخذ ولداً، وهو الغني عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه.

واستثمر عيسى عليه السلام هذا الموقف الذي انطقه الله تعالى فيه ليوجه قومه بما أنطقه الله تعالى به ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فيبين عيسى عليه السلام لقومه حقيقة العبودية والربوبية، مبتدئاً بإثبات الربوبية لله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ فكما هو ربي كذلك هو ربكم، فربنا واحد لا شريك له. فإن ﴿ٱللَّهَ رَبِّى ﴾ وكذلك هو ﴿ وَرَبُّكُمْ ﴾ فإننا قد تساوينا في ذلك، فرب الجميع هو الله تبارك وتعالى، ولا فرق بيننا، فمثلي مثلكم، وبهذا ينتفي أنه ابن الله تبارك وتعالى، مؤكداً ذلك بحرف التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ التي تزيد ما بعدها توكيداً وتأكيداً لحقيقته.

ثم تدرج معهم بعد تقرير أن الله تعالى رَبَّ الجميع إلى مقام العبودية، فتدرج معهم إلى إثبات العبودية أنها لله تعالى وحده لا شريك له ﴿فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فهي نتيجة ومحصلة للإيمان بالله تعالى رباً، فمن أقر بالربوبية لله عَزَّ وجل عليه أن يصرف العبادة له وحده لا شريك له ﴿فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فإنه لا يستقيم الإيمان بالله تعالى

---

(١) المرجع السابق (١٦٢/٥)

رباً مع صرف العبادة لغيره، أو إشراك معه غيره في العبادة. بما يفيد أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى فقد خالف الإيمان بالله تعالى رباً، وعارضه ونقضه وناقضه.

ثم يبين لهم حقيقة ما جاءهم به من عند الله سبحانه وتعالى ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ هذا الذي جئتكم به من عند الله تعالى ﴿صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: قويم، خالٍ من الخلل والاعوجاج، فهو منهج مستقيم، تتمثل فيه النجاة والسلامة لمن اتخذه، لأنه دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده. وهذا إيراد بليغ لدين الله تعالى بأنه صراط مستقيم، قد انتفى عنه كل صعب وعسير، سواء في الأداء والتطبيق، أو الفهم، والوصول إلى المراد المرغوب والمأمول والمحبوب الذي هو دخول الجنة بسلام. وبالتالي فإن كل ما يخالفه هو طريق اعوجاج، لا يصل بسالكه إلى النجاة، بل يسلك بصاحبه إلى سوء المصير، مع ما فيه من الريبة والشكوك والعسر والصعوبات. فنحمد الله تعالى الذي هدانا بكرمه وفضله وإحسانه لدينه القويم، فالحمد لله رب العالمين.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٍ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان من الله تبارك وتعالى إلى الإخبار عن اختلاف المختلفون من الفِرَقِ في شأن عيسى ابن مريم عليهما السلام من بعد ما جاءهم الحق، ليفيد خروجهم عن العدل والحق إلى الباطل ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ فاختلف الأحزاب من اليهود والنصارى في شأن عيسى إلى طوائف متباينة ومتعارضة مع الحق المبين. قال قتادة رحمه الله تعالى: امترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله، وثالث ثلاثة[١] وعن قتادة رحمه الله تعالى: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً[٢] قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: لما تَمَسَّك المؤمنون بالحق، كان اختلاف الأحزاب عن المؤمنين مقصور عليهم[٣] ومن دقائق البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٢/٥)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٢/١٥)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٣/٥)

﴿ مِنۡ ﴾ زائدة، والمعنى: اختلفوا بينهم[١] أي زائدة تؤدي دلالة التوكيد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿ مِنۡ ﴾ زائدة للتوكيد[٢] مما يدل على أن ليس في القرآن كلمة ولا حرف هو زائد لا حاجة له، بل يؤدي وظيفة، ويحقق معناً، وهو تأكيد اختلاف فرق أهل الكتاب في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، وأن المؤمنين هم الذين لم يختلفوا فيه، لأنهم على الحق الذي بينه الله تبارك وتعالى.

وسمى الله عَزَّ وجل الْفِرَق التي اختلفت في عيسى عليه السلام بالأحزاب ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾ والأحزاب جمع حزب، والحزب هم جماعة، أو مجموعة، ترابطوا فيما بينهم. كما أفاد الجمع ﴿ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ أنهم كثير، فلم يكونوا حزبين، أي: اليهود والنصارى، بل كانوا أحزاباً متعددة، فافترقت اليهود في عيسى عليه السلام إلى أحزاب، وافترقت النصارى في شأنه عليه السلام إلى أحزاب.

ومن مزيد دقائق القرآن البياني أن دلالة ﴿ بَيۡنِهِمۡ ﴾ تفيد الجمع كذلك، فعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام مبعوث لليهود والنصارى. فيصبح دلالة المعنى أن مَنْ بُعِث عيسى فيهم، قد اختلفوا في شأنه إلى فرق متعددة. كما لخصها قتادة رحمه الله تعالى: امترت اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحر، وزعم النصارى أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وغير ذلك مما نقل تفاصيله علماء التفسير.

وقد سمى الله تعالى أهل هذه الأحزاب التي افترت على عيسى عليه السلام بالكافرين ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ فتوعدهم تبارك وتعالى بالعذاب الشديد، لبغيهم واعتدائهم على حقوق عيسى عليه السلام، ووصّفِهِم لهُ بما هو بريء منه. مما يدل على أنهم قد كفروا بما اختلفوا واختلقوا فيه من الكذب والبهتان والافتراء ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فويل للذين حق فيهم الكفر بما كان منهم في حق عيسى، فعلى جميع اختلافهم قد جمعهم الكفر ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ من مشهد يوم القيامة، الذي سينالون فيه ما يستحقون من العذاب. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى، أي: فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم، أي: من شهود يوم القيامة، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود: الحضور. وقيل المشهد بمعنى الموضع الذي يشهده الخلائق، كالمحشر للموضع الذي يُحشر إليه الخلق. وقيل: فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٣٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/١٦٢)

الذي اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله تعالى، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة[١] فشملت وجمعت دلالة المشهد الأحوال جميعها. وهذا من بلاغة السياق، وعمق تراكيب ألفاظ وكلمات بيان القرآن الكريم.

وسماه الله تعالى ﴿مَّشْهَدِ﴾ بما يفيد أن الجميع يشهده، فهو يوم مهيب رهيب. وحدده بأنه ﴿يَوْمٍ﴾ فليس بأيام، ليدل على عظمة قدرة الله تعالى في الفصل بين الخلائق في ذلك اليوم، فهو يوم واحد، ولكنه ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهو عظيم بما يحصل فيه من الفصل والحساب، الذي هو يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم في هيبته، والعظيم في عرصاته، والعظيم في خوفه، والعظيم في مشاهده، والعظيم في مواقف الحساب. ونسأل الله تعالى العافية والأمن والأمان، والنجاة بفضله وكرمه.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأسلوب الإخبار والمقارنة بين حال الكافرين يوم القيامة وبين حالهم اليوم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فما أقوى سمعهم، واشتداد أبصارهم حين يقدمون على الله جَلَّ جلاله يوم القيامة ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأما اليوم في حياتهم الدنيا يعيشون في تماديهم وعنادهم الذي استوفوا به صفة الضلال البين والواضح ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الذي يرتفع به عنهم الجهل، فليس ذلك الضلال لجهلهم، بل لعنادهم، وتماديهم في الباطل.

وقد ورد البيان من الرحمن الرحيم بأسلوب الإخبار والمقارنة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فما أقوى سمعهم، واشتداد أبصارهم حين معاينة الحساب والجزاء، فيتحقق في نفوسهم العقاب والعذاب، عندما لا ينتفعون بسمعهم ولا أبصارهم للعودة إلى الحق، فقد حال بينهم الموقف العظيم. ليفيد قوة الحسرة التي تُشكل لهم العذاب النفسي قبل العذاب الحسي الذي سيصلون إليه. وهي جملة تفيد التعجب من حالهم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فتقول: أسمع بزيد، وأبصر بزيد، أي ما أسمعه وأبصره، فمعناه عَجَّبَ منهم نبيه صلى الله عليه وسلم[٢] وليفيد التعجب من حالهم اليوم، ما أسمعهم، وما أبصرهم اليوم، إذ لم يستفيدوا من سمعهم وأبصارهم حال إمكانية الاستفادة منها، وتحسرهم حال عدم الاستفادة منها.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٣/١١)

(٢) المرجع السابق (٧٣/١١)

ليدل على صورتهم وحالهم اليوم، وحال كل من لم يستفيد من سماعه للحق، ورؤيته ومشاهدته عياناً له، وهما الحاستان والجارحتان التي يدرك بها الإنسان الأشياء والدلائل والحجج التي يتغذى بها القلب والعقل.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾: أن لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر. فالمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم حين لم ينفعهم ذلك، لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفكر، فعلموا الهدى، وهذا قول الأكثرين[1] فما أشد سمعهم وأبصارهم ذلك اليوم عند معاينة ما كانوا يستهزئون به، ويفترونه، بقولهم عيسى ابن الله، ومن قال إنه الله، ومن قال: أنه ثالث ثلاثة. ويشمل غيرهم ممن كذب المرسلين.

ومن جمال البيان أن أثبت السياق المقارنة بين حالهم في الدنيا وحالهم يوم القيامة بالانتقال من حال إلى حال، من خلال كلمة ﴿ لَٰكِنِ ﴾ لتثبت المفارقة بين حالهم مع سمعهم وأبصارهم في الدنيا وفي الآخرة، فلم يستفيدوا من سمعهم وأبصارهم عندما كانت عوناً لهم على إدراك الحق في الدنيا، إذ تَعَطَّل الانتفاع بها حين معاينتهم للعذاب، فلا يستطيعون الإفادة منها ذلك اليوم. فأثبت بحرف ﴿ لَٰكِنِ ﴾ حكماً لسمعهم وأبصارهم مخالفاً لحكم ما قبلها. ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وسماهم بالظالمين، لأنهم ظلموا أنفسهم بأنفسهم، فلم يظلمهم ربهم تبارك وتعالى، كما سمى حالهم اليوم ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ لأنهم لا يجدون طريقاً يذهبون به إلى الحق، فليس حالهم إلا حال الضال الذي تاه عن الطريق، فهم اليوم في حياتهم الدنيا يعيشون في تماديهم وعنادهم الذي استوفوا به صفة الضلال الواضح الْبَيِّن ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الذي يرتفع به عنهم الجهل، فليس ذلك الضلال لجهلهم، بل لعنادهم، وتماديهم في الباطل.

وبعد تحذير الله تعالى بأسلوب الإخبار والمقارنة، يوجه تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بإنذارهم من يوم الحسرة، التي يتحسر فيها الكافر على ما كان من كفره، والمفرط على ما فرط من الطاعة ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي هذا الإنذار مزيد من التحذير والبيان للحقائق التي يجب على العاقل أن يستدرك شأنه قبل أن يتحسر على ما فاته من أعمال الخير والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد الإعذار من كل وجه عما يلحق بالمكذبين من العذاب.

وورد التوجيه الكريم بأسلوب الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ ليفيد الأهمية البالغة لما أُمِر به عليه الصلاة والسلام، والإنذار يفيد الإخبار على سبيل الترهيب والتحذير. والمأمور بإنذارهم هم جميع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٣/٥)

الخلائق، ليشمل: أهل مكة، وأهل الكتاب، وجميع الناس، والمنذور منه هو ﴿ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ الذي يشتد فيه الندم مع الغم على ما لا يمكن تداركه، وقد فات الأمر فيه، وانقطع الرجاء، وهو انحسار التدارك واضمحلاله وفواته عنهم، وعدم القدرة على استعادة ما فاتهم ليجتنبوا ما هو واقع بهم من العذاب، وليحصلوا على ما يرونه من الخير الذي حل بمن آمن وأطاع الله ورسله، فيتحسر الكافر، ويتحسر المقصر الذي لم يزدد من الخير، لتحصيل أعلى الدرجات ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ فقد أُحْكِمَ وأُتْقِنَ حكم القضاء، وقُطع به قطعاً نهائياً، فَقد فُصِل بالقضاء بين أهل الجنة وبين أهل النار، ودخل كل فريق إلى ما صار إليه من الجزاء، خالداً فيه أبداً،. فيتحسر أهل النار لما يرون من انقطاع قدرتهم على مماثلة أهل الجنة، وانقطع الرجاء عندهم، بتفريطهم يوم أن كان الأمر والاختيار لهم، فصار مصيرهم إلى النار وبئس المصير، وقد كانوا عن هذا الآجل في غفلة وذهول بملذات الدنيا وشهواتها ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد كانوا في غفلة عندما كانوا في دار الفناء، نتيجة غرورهم بالحياة الدنيا وزينتها ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلم يؤمنوا بالله تعالى، وبما جاءهم من الحق، فشغلتهم شهواتهم الفانية. ومن بديع البيان ودقته أن ورد عدم إيمانهم بصيغة المضارع ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ليفيد استمرارهم في الإصرار على عدم الإيمان إلى أن قُضِيَ الأمر ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ مما يبين أن طيلة حياتهم وهم في الكفر يعيشون.

وهذه موعظة جليلة عظيمة، يبين فيها تبارك وتعالى يوم يتحسر فيه من فَرَّطَ في طاعة الله تعالى، فيفوت عليه الخير والنعيم المقيم، وفي ذلك تحذير من غرور الدنيا وزينتها، فإنها فانية ومتلاشية عن العبد، فتضعف قواه يوماً بعد يوم، فيتباعد عنها، وينقضي شأنه فيها بالموت. فلا شهوات استدامت معه، ولا زينة الدنيا نافحت ودافعت عنه، ولا غروره هداه للخير، بل جلب له الحسرة العميقة التي لا تنقطع أبداً، لتكون عذاباً نفسياً له مع العذاب الحسي الذي يجده من النار. فنسأل الله تعالى حُسن الخاتمة، وكرمه وفضله عَزَّ وجل في الدنيا والآخرة.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تأكيد قدرته سبحانه وتعالى، والإعلام بكمال ملكه وشمول سلطانه لكل ما خَلق ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فسيموت الخلق أجمعين، حتى لا يكون هناك وارث يرث ما تركوه، وسيكون الوارث لها مالكها سبحانه وتعالى، فلا يبقى إلا سلطان الله تعالى، حيث يُرْجَعُون إليه عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فإن مرجع الجميع إليه جَلَّ في علاه، فيجازي كل أحد بما يستحق من الجزاء، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. وفي هذا الإخبار والإنذار تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، من أنه لا تحزن، ولا تهتم لمن كفر وجحد، فمصيرهم إلينا.

وقد ورد البيان بأسلوب التأكيد على فناء الخلق، وأنه لا بقاء إلا سلطان الله تعالى، فقد استهل البيان بنون التوكيد الملتصقة والمقترنة بضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ وهو الله تبارك وتعالى، ثم أعقبه أيضاً بضمير المتكلم ﴿ نَحْنُ ﴾ فقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ لتفيد التأكيد، والتفخيم والتعظيم والإجلال. والتبجيل والقوة والسلطان، وكمال القدرة. قال جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى عن ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تأكيد[١] ثم كرر ضمير المتكلم للمرة الثالثة: المتصدر للفعل ﴿ نَرِثُ ﴾ الذي دل على فناء العباد، وأن لله عَزَّ وجل ميراث ملك الأرض من قبل ومن بعد، ولكن تخصيص ميراثها لله تعالى كناية عن زوالهم وزوال ما مكنهم فيه منها بالقدر الذي أراده عَزَّ وجل، وقد أفناهم جميعاً، فلم يعد منهم وارث يتصرف فيها، إلا تصرف خالقهم العزيز العظيم. فهي ثلاث مؤكدات من التعظيم والتبجيل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ﴾ تأكيد على تأكيد على تأكيد، لإظهار عظمة الملك والقدرة والسلطان.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ
وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا
﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ
تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا
﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم
مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى نبي الله ورسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فيوجه الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يذكر للناس خبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه وقومه، إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، وهي مماثلة للتي يعبدها كفار قريش وغيرهم من المشركين ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ فاذكر في الكتاب الذي هو القرآن الكريم خبر إبراهيم

(١) جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٣٠٨)

عليه الصلاة والسلام، وقصته مع أبيه وقومه. من أجل الاتعاظ والاعتبار، ومعرفة حقيقة التوحيد التي كان عليها إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وبدأ التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ أي: اقرأ عليهم من القرآن شأن نبينا ورسولنا إبراهيم الذي كان حنيفاً ولم يكن من المشركين ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ وفي هذا تنويه بشأن إبراهيم وسيرته التي أصبحت قدوة وأسوة في توحيده لله تعالى، والذي خالفه الناس في ذلك، ومنهم العرب الذين هم من نسله. وفي هذا مدح وثناء من الله تعالى على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ جعله قدوة وأسوة. كما أن في ذلك تعضيد وتقوية لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، بأن ما يقابله من قومه هو مثيل لما قابله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتسلية له فيما يلاقيه من قومه، وله في إبراهيم أسوة حسنة، كما أن لقومه فيه حجة عليهم.

وقد وصف الله تبارك وتعالى نبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بصفتين جامعتين لكل المحامد ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾ فالصفة الأولى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا ﴾ فإنه متصف بالصدق الذي ترسخ فيه، وأصبح عادة له، بل بلغ فيه من التحري وعدم العدول عنه أن تجاوز الوصف فيه إلى حد المبالغة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا ﴾ فكلمة ﴿ صِدِّيقٗا ﴾ تفيد المبالغة في الاتصاف بالصدق، ليدل على أن الموصوف قد بالغ في الاتصاف بالصدق وتحريه، فهو من أهل الصدق في أقواله وأفعاله، واعتقاده، وإخباره. وقد ارتفع مقام الوصف والتزكية إلى أنها تزكية من الله تعالى، إذ أن الذي وصفه بهذه الصفة الكريمة العظيمة هو الله تبارك وتعالى، فأنعم بها من تزكية، فإنها من رب العالمين، لخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام. وفي هذا دلالة على منزلة الصدق، وأهمية المبالغة في تحري الصدق، ليصبح صفة للمؤمن. والصفة الثانية الكريمة: ﴿ نَّبِيًّا ﴾ فقد اختاره الله تعالى أن يكون نبياً، فنبأه سبحانه وتعالى، وأوحى إليه بوحيه، وهي منزلة رفيعة وعظيمة، إذ اختاره الله تبارك وتعالى لهذه المنزلة الكريمة العظيمة.

وبعد ثناء الله تعالى على خليله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام يخبر عَزَّ وجل عما كان منه مع أبيه الذي كان يعبد الأصنام ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ فاذكر أيها النبي لقومك وللناس ما جاءك في القرآن عن تعامل إبراهيم مع أبيه في إرشاده ونصحه له، وبيانه لحقيقة ما هو عليه من الشرك. فإنه لخطورة الشرك، وتعارضه مع توحيد الله تعالى، ومع إفراده عَزَّ وجل بالعبادة، فإنه لم تمنعه مكانة أبيه منه عن أن ينصحه، وذلك لخوفه عليه من عاقبة الشرك التي مصير صاحبها إلى النار وبئس المصير.

وبدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعوته بأقرب الناس إليه، وهو أبيه، مما يفيد أن أحق الناس بالإحسان هو الأقرب، وكان أبوه أقرب إليه من غيره. فبدأ بأبيه. متحدثاً معه بأدب رفيع، وأسلوب عميق في دلالته، وكشفه لما هو عليه من الزيغ والضلال. ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ أي: اذكر حين قال إبراهيم لأبيه آزر.

فبدأ كلامه لأبيه بأجمل ما يكون الخطاب ﴿يَـٰٓأَبَتِ ﴾ فلم يخاطبه باسمه، احتراماً وتقديراً لوالده، واستعطافاً لقلبه وودِّه، وابتدأ خطابه لأبيه بياء النداء، مع أنه مستغني عن النداء، لوجود أبيه معه، ولكنه لشد انتباه أبيه آزر، واستحثاث الانتباه والاهتمام لما سيذكره لأبيه، مع طلب الإقبال على ما سيذكره له، وأن أباه محل اهتمامه وعنايته، حتى يستمع بعناية لما سيقوله من القول. ثم تلى ذلك الأدب الرفيع الاستهلال بالحديث مع أبيه بسؤال استفهامي يحمل الاستنكار، ولكن بأسلوب الاستفسار الذي يُوجِب التفكير والتأمل، ويحمل التعجب من أن ينساق الإنسان إلى معبود قد فقد من أمره كل شيء، حتى الحواس الدالة على الحياة ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ لماذا تعبد من فقد الحواس الدالة على الحياة، فإن خاطبته لا يسمعك، وإن جئت إليه لا يبصرك فيراك. فيلفت انتباه أبيه إلى أن معبوده من الأصنام عاجز لا خير فيه، فإنه لا يسمع خطابه ونداءه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ فإنه لا يسمع شيئاً من المسموعات عموماً، وبالتالي لا يسمع رجاءك ولا كلامك، فكيف تعبد من لا يسمع كلامك ونداءك ودعاءك، فإن ما تعبده أنت ومن معك من هذه الأصنام الفاقدة للسمع خطأ كبير، ومَعِيب في حقكم، فإن دعوتها ورجوتها ما سمعت منك قولاً، ولا صوتاً، فكيف تستجيب لك، وكيف تتوجه لها بالخطاب والدعاء والطلب؟ وكذلك ﴿وَلَا يُبْصِرُ ﴾ فإنها لا تُبصر شيئاً من المبصرات، فإن تلك الأصنام لا تراك حين تأتيها، وتعبدها، فلا تعرف عنك شيئاً مما تقوم به، فإنها فاقدة للبصر، كما أنها فاقدة للسمع. وفي هذا السؤال شد الانتباه، وإثارة للفكر بالتأمل في الحقائق، وفي الحقيقة، وكشف فسادها، وفساد عقل من يعبدها. ثم أضاف حقيقة ثالثة ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ فلا تغنيك في شيء تطلبه وترجوه منها، ولا تدفع عنك ما تخافه وتتوقاه، فلا نفعاً تجلبه لك، ولا ضراً تدفعه عنك، وبالتالي لن يتحقق لك بها ما يغنيك من شيء.

ومن دقائق السؤال أنه كشف لأبيه الحقيقة باستنطاقها، حتى تظهر للعيان من كل وجه، إذ طرح الفكرة بالسؤال الذي يستثير التأمل، فلم يطرح الحقيقة على بساطها، بأن يقول لأبيه: إن هذه المعبودات لا تسمع ولا ترى، ولا تغنيك في شيء، بل طرحها في صورة سؤال، لأن السؤال هو الذي يستثير الذهن والفكر والتأمل، وهو أكثر فاعلية في التأثير الذهني من الطرح للحقيقة كما هي، وكذلك فإن السؤال عنها أخف على القبول والنظر والتأمل، بينما الطرح لها مع أبيه بالصورة المباشرة قد يَشْعُرُ بأن ابنه يستهجنه، ويستصغر عقله وفكره، ولكن صَبَّ الأمر على المعبودات، فَهَجَّن المعبودات، وكشف أنها ناقصة، والناقص في ذاته لا يستطيع

أن يحقق لغيره الكمال، بل إنها لم تستطع أن تستكمل نقصها، فضلاً عن أن تحقق لغيرها خيراً وكمالاً، أو تدفع عنه بؤساً وشراً. بما يستدل به على أنها عاجزة، فكيف يعبدها من هو أكمل منها بسمعه وبصره وما قَدَّرَهُ اللهُ تعالى له من القدرة. فإن العابد إنما يعبد من له الكمال المطلق في الخلقة والقدرة والسلطان، وله مُلك زمام أمور الكون، وهو الله سبحانه وتعالى. فكيف والذي يعبده ويتقرب إليه لا يسمع ولا يرى، ولا حتى يدفع عن نفسه أذى من يؤذيه. فإنها محاجة بليغة من كل وجه، ومستثيرة للعقل والتأمل والتفكير.

وبعد أن أبان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطلان الأصنام، يتوجه لأبيه في تدرج عميق إلى ما حباه الله تعالى به من العلم ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ فبدأ بتكرير النداء، وتكرير لفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ للمرة الثانية، وذلك إمعاناً في التلطف والتواضع لأبيه، واستجلاباً لعاطفة الأبوة بالأدب الجم الرفيع. ثم انتقل إلى الخصوصية التي خصَّه الله تعالى بها من العلم ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ فقد جاءني من العلم المخصوص ما لم يحصل لك منه. وفي ذلك إيضاح بأنه حصل له ما يهتدي ويهدي به غيره للحق. فأشار في تواضع أن ما وصل إليه هو بعض العلم ﴿ قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ لأن جملة ﴿ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ تفيد شيء من العلم، وبعض منه، فليس كل العلم عندي، بل ﴿ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ ليفيد أمرين: الأول: عدم التعالي على أبيه، بتخفيف ما جاءه من العلم، بأنه شيء من العلم وليس كل العلم، ولم يستصغر أباه مباشرة إزاء توجهه لما لا يسمع ولا يبصر، فلم يرمه ويصفه بالجهل، حتى لا يستنكف والده بزيادة ما عند ابنه من العلم والفضل، وكذلك حتى لا يستثير عند أبيه أن يستصغره ويقلل من شأنه، لأنه يغلب على الكبير أنه يرى من نفسه زيادة المعرفة والخبرة على من يصغره، وأنه هو الأعرف والأخبر.

والثاني: تواضعه مع ربه تبارك وتعالى، لأنه مهما نزل عليه من العلم، فإنه بعض العلم، وهو قليل من علم الله تعالى العظيم، لأن العالم كله لم يؤت من علم الله تعالى إلا النزر اليسير. وفي الإخبار عن ذلك بالمقارنة مع ما أوضحه عن عجز معبوداتهم من الأصنام ما يبين أن الشأن متعلق بالدين، وأنه وحي من الله تعالى له به، وأنه نبي من عند الله تعالى، وأنه يهدي إلى الحق ويبينه. فلم يستثير أباه ويرميه بالجهل، ويتعالى عليه بما حباه الله تعالى من العلم، بل نوه بما خصه الله تبارك وتعالى من العلم، دون تجهيل وتحقير لأبيه، وما هو فيه من الشرك. مما يبين منهجية الدعوة مع الجاهل عموماً، والقريب والكبير من السادة والكبراء في أقوامهم. وأن دين الله تعالى في الدعوة يقوم على الحكمة والتواضع، وعدم استثارة المدعو. لأن الهدف ليس هو التعالي على المدعو، بل الهدف هو إنقاذه من الكفر، ومن ظلام الشرك، إلى نور الله تعالى، وما أعده للمؤمنين.

ثم طلب من أبيه أن يتبعه بعد أن ذكر العلل الموجبة لاتباعه ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ فاتبعني بناء على ما جاءني من العلم، وقد أفادت كلمة ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ ﴾ الجزم والحزم واليقين بأن النجاة محصورة فيما جاءني من العلم، فليس المقام مقام تشاور وتحاور، بل مقام حقيقة واجبة الانقياد والاتباع، فإن اتبعتني ﴿ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ أُوصلْكَ بهذا العلم الذي جاءني إلى مطلوبك وأملك من الخير، وإلى إبعادك ونجاتك عما تكرهه وتتوقى منه ﴿ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ الطريق السوي المستقيم المعتدل، الذي لا تضل به وفيه أبداً، وهو دين الله تعالى الذي رضيه لعباده. وفي جملة ﴿ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ ما يفيد أنك يا أبي على خلاف المنهج القويم تماماً، فإنك في مهلكة لك في الدنيا والآخرة، فجاء بالأسلوب الذي يستحث ويُنَجّي به أباه، ومُعْرِضَاً عما يستثير تبرمه ونفوره، وهذه من الحكمة في الخطاب، وفي الموعظة والإرشاد، خاصة مع من يرى أنه فوق من يخاطبه، سواء من حيث القرابة أو السلطة، أو الجاه والمكانة.

ومن غزارة البيان في تدرجه أنه بدأ مع أبيه بإبطال ما كان يعبده من الأصنام، بطريقة السؤال الاستفهامي الذي يحمل كشف الحقيقة، وتعرية المنهج، وما يحمل من الخطأ الشنيع، وما يتبعه من الباطل المنافي للحق، والعقل السليم، ولكن بأسلوب الاستفسار الذي يُوجِب التفكير والتأمل، ويحمل التعجب من أن ينساق الإنسان إلى من يفقد حتى الحواس الدالة على الحياة ﴿ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ ثم يتدرج معه إلى ما خصه الله تعالى به من العلم الذي هو الحق المبين المستقيم، الموصل إلى النجاة يوم الدين، والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد أن أبان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطلان الأصنام، ثم بيان ما خصه الله تعالى به من العلم، الذي يتكلم به من عند الله تعالى، وليس من عنده، يتدرج مع أبيه إلى وصف حقيقة الأصنام ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ فبدأ مخاطبة والده بتكرار النداء للمرة الثالثة، وتكرار لفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ وذلك إمعاناً في التلطف والرفق والتواضع لأبيه، ورفعاً لمستوى التأكيد والرجاء بأن يطاوعه فيما يقوله له. واستجلاباً لعاطفة الأبوة بالأدب الجم الرفيع. لينتقل بعدها إلى وصف تلك الأصنام، فوصف عبادتها بأنها استدراج من الشيطان ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ فوصف عبادة الأصنام بأنها عبادة للشيطان، لأنه هو الذي يزينها للعبد، فإن أطاع الشيطان فقد وافقه، فكانت عبادته للأصنام هي عبادة للشيطان الذي زينها لمن عبدها. وفي ذلك افصاح وبيان واضح أنها باطلة فاسدة، وأنها من تزيين الشياطين لمن عبدها. مما يدل على أن المعاصي هي اتباع للشيطان بما يوسوس به ويزينه للعباد.

ثم علل هذا النهي التحذيري ببيان أن من أطعته هو عدو للإنسان، لأنه عاص لربه جَلَّ جلاله ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ فلما أن الشيطان عاص لربه بعدم السجود لآدم، فإن من طبيعة العاصي أن يسعى في تكثير من يسلك مسلكه، ويزين ذلك لهم بكل ما أوتي من قدرة. وأكد ذلك بحرف التأكيد ﴿إِنَّ ﴾ وموضحاً أنه صار عاصياً منذ أن رفض السجود لآدم ﴿كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ فمنذ ذلك الوقت وهو عاص لربه تبارك وتعالى، فتأصلت فيه المعصية، وأصبح ذلك هو واقع حاله الذي لا ينفك عنه، وأصبح لا يفارقه، لأن كلمة ﴿عَصِيّٗا ﴾ تفيد مبالغة الشيطان في معصيته لربه، إلى درجة تمكن المعصية منه تمكناً لا ينفك عنها. والعاصي محفوف بالنقم. وقد أفادت ﴿كَانَ ﴾ الزمن الماضي مع الاستمرار عليه، أي: أنه صار عاصياً منذ أن رفض السجود لآدم، فهو عاص لربه تبارك وتعالى، ولا زال باقياً ومستمراً في نهجه البغيض، وسعيه لتكثير أمثاله من العصاة.

وفي هذه المعاني والدلالات الكثيرة مع الإيجاز العظيم والدقيق ما يدل على بلاغة القرآن العظيم وإعجازه البليغ في البيان والإيضاح، فبدلاً من الإسهاب الطويل في تعداد أوجه العلاقة بين الشيطان وبين عبادة الأصنام، وتزيينها للعباد، وما كان للشيطان من أثر على والده آزر، ومطاوعته للشيطان، وما تضمنه ذلك من التحذير، وبيان الصواب، جاء كله في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ وفي ذلك ربط بين المعصية وبين الشيطان، وبين معصية الشيطان للرحمن ومعصية الإنسان لربه سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان وتناسق دلالاته هو ورود اسم الرحمن في البيان، واختياره دون غيره من أسماء الله الحسنى ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ فإن الشيطان عاص لربه الرحمن. فمع رحمة الله تعالى، إلا أنه عاص لربه تبارك وتعالى المتصف بالرحمة، الموجبة للمحبة والطاعة وليس المعصية. ولولا رحمته لأهلكه. وفي اختيار الرحمن دون غيره من أسماء الله تعالى ما يدل على أن الله تعالى متصف بالرحمة للعباد، فيرسل لهم الرسل والبينات والحجج والبراهين، لرحمته بهم، وأما الشيطان فلا يأمر ولا يزين إلا الباطل، المضاد للرحمة، والجالب للبغض، وما يتحقق به من معصية الله تعالى، فعليك بطاعة الرحمن بدلاً من طاعة الشيطان. وفي هذا إقامة الحجج والبراهين بأدق ما يكون من الناصح المشفق على من ينصحه. وهي غزارة ودقة بيانية ممتلئة بالإعجاز البياني في الأسلوب والدلالات، وما تفضي إليه من المعاني. وقد تكر ذكر اسم الشيطان، مع إمكان الاستغناء بذكر اسمه الأول عن اسمه الثاني، وذلك بالإشارة إليه، باسم الإشارة، دون تكرار ذكر اسمه مرة أخرى، ولكن ليتحقق بتكراره التأكيد والإظهار وتبشيع فعله، لتنفر النفوس منه.

ويتدرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مخاطبة أبيه معلناً بخوفه عليه من عذاب الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ فبدأ خطابه وحديثه بتكرار النداء لأبيه آزر، مع تكرير لفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ للمرة الرابعة، وذلك إعلاناً لمزيد التلطف واللين والتأدب، ورغبة في استجابة أبيه له. ورفعاً لمستوى التأكيد والرجاء والخوف عليه من عذاب الله تعالى. وبعد أن كرر النداء، مع تكرار لفظ الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ يُظهر خوفه على أبيه من عواقب ما هو فيه من عبادة الأصنام ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ فيستجدي إبراهيم عليه الصلاة والسلام والده آزر شفقة ورحمة به من أن ينزل عليه عذاب الله تبارك وتعالى، بسبب إصراره على ما هو فيه من عبادة الأصنام، رجاء أن يطاوعه فيما يقوله له. واستجلاباً لعاطفة الأبوة بإثارة عاطفة الخوف عليه، في أدب جم ورفيع. ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ وهنا لم يجزم له بوقوع العذاب عليه، بل قال ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ وذلك تأدباً مع ربه تبارك وتعالى، إذ لم يقطع به ويجزم فيما هو لله تعالى، وكذلك فيه دفع لأبيه نحو الهداية للطريق السوي المستقيم، مع إبقاء الأمل في نفس أبيه، ورفع درجة الخوف من وقوع العذاب، وتحذيراً واستجداء لأبيه بأن يطيعه.

وفيه كذلك بيان لشفقته وخوفه على أبيه من أن يناله مقت الله تعالى وعذابه ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ والخوف هو توقع حلول العذاب بأبيه إن لم يقلع عن عبادة الأصنام، ويعبد الله تعالى وحده لا شريك له، ويتبع منهج الله تعالى. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن دلالة كلمة ﴿ أَخَافُ ﴾ بمعنى أعلم. ويجوز أن يكون ﴿ أَخَافُ ﴾ على بابها، فيكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب[١] ولا يمنع أن تحمل المعنين، لما يعلمه إبراهيم من الله تعالى أن من أشرك كفر، واستحق العذاب، وكذلك تحمل معنى إن متَّ على كفرك فيتحقق فيك العذاب، ولكن في إيراد كلمة الخوف دون غيرها ما يفيد عدم الجزم والقطع تأدباً مع الله تعالى، ودفعاً لأبيه نحو هدايته للطريق المستقيم، وعدم استثارته. مع رفع درجة الخوف من وقوع عذاب الله تعالى به. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: قال الفراء: معنى الخوف هنا: أعلم، وقال الأكثرون: إن الخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه. ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير[٢] ومن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/١١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٦/٣)

دقائق البيان كذلك كلمة ﴿يَمَسَّكَ﴾ التي تفيد الملاصقة والمباشرة للعذاب، فهي معبرة أدق التعبير عن وقوع العذاب، والتصاقه بمن وقع عليه العذاب من الله تعالى.

وجاء باسم الله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لما فيه من الرحمة التي لا يمكن أن يكون منه العذاب إلا لشيء عظيم قد استوجب العذاب، بما يبين ويوضح أنك يا أبي على شيء عظيم من الكفر الذي يستوجب العذاب من الله تعالى، فاترك ما أنت عليه، وأقبل على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي يرحمك برحمته، فيغفر لك ما كان منك، ويبدل سيئاتك حسنات، وتصل بذلك إلى رضاه، الموصل إلى رحمته وجنته عَزَّ وجل.

مبينا لأبيه في تحذير مليء بالخوف من أنه حال إصراره على ما هو عليه، فإنه يكون من أولياء الشيطان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ فتكون للشيطان ولياً من دون الله تبارك وتعالى، فتكون موالياً وصاحباً وتابعاً ومقارناً في المصير لعدو الله تبارك وتعالى إن لم تتبعن، فإنك بذلك يا أبتي تتصف بما اتصف به الشيطان، وتستحق من العذاب ما يستحقه من والاه، وتنتفي عنك بذلك ولاية الرحمن ورحمته تبارك وتعالى.

وبعد أن قدم إبراهيم لأبيه دعوته ونصيحته المفعمة بالأدب والبرهان، يقابلها والده آزر بالوعيد والتهديد الشنيع لابنه إبراهيم ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ فخاطب ابنه إبراهيم الخليل بصيغة السؤال الاستنكاري، المشتمل على الاستنكاف والتهديد ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أزاهدٌ أنت عما أعبد من الآلهة يا إبراهيم؟ فإنه سؤال يحمل استنكار أن يسلك إبراهيم غير مسلكه في عبادة الأصنام، مشيراً إلى إبراهيم بكلمة الميل والزهد ﴿أَرَاغِبٌ﴾ أي: أزاهد ومائل أنت إلى غيرها، وكاره لها؟ ليفيد التعجب من أن يسلك ابنه إبراهيم غير مسلكه. ومشيراً إلى ما يعبده من الأصنام بصيغة التعدد والجمع والكثرة ﴿ءَالِهَتِي﴾ ليفيد أنه يعبد آلهة متعددة من الأصنام وليس إلاهاً واحداً، مما يزيد من عظيم خطأ الضلال الذي هو فيه، بل ونسب نفسه إليها ﴿ءَالِهَتِي﴾ وذلك من شدة تمسكه بشركه ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ كيف ترغب عن آلهتي يا أبراهيم؟ سؤال يحمل التعجب والاستغراب، والتوبيخ والتقريع، بما يدل على تشبثه بما هو عليه من الشرك.

ثم عَمَدَ إلى التهديد والوعيد بعد الاستنكار ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ فإن لم تتوقف وتنتهي عما قلته لي ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ فجمعت جملة ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ ﴾ جميع ما أغضبه من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لتستوعب جميع بيان إبراهيم ودعوته لأبيه عليه الصلاة والسلام، وكذلك تستوعب الحق الذي جاء به، وما وصف به الأصنام من عيب السمع والبصر، ورميها بالسوء، والاحتقار لها، والوصف القبيح الذي نعتها به ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ لأرجمنك بالحجارة وبالقول السيء. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لأرجمنك بالكلام، وذلك بالسب، والقول القبيح[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي بالحجارة، وقيل باللسان، فيكون معناه لأشتمنك، وقيل معناه لأضربنك، وقيل لأظهرن أمرك[٢] فاستوعبت كلمة ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ جميع أنواع الأذى الحسي والمعنوي من القتل بالحجارة، والسب والشتم، وإظهار أمرك عند الناس، بأنك خارج عن ملتهم. ثم يوجه ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأسلوب التهديد إلى ما يجب أن يسلكه ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ أي: اجتنبني وابتعد عني وقتاً طويلاً، فلا تكلمني، لتكون سالماً قبل أن يُصيبك مني عقاباً أُعاقبك به، لأن الهجر قطع المكالمة والحديث بين المتهاجرين. وقال الفيومي رحمه الله تعالى عن كلمة ملياً: قيل مدة، وقيل زمناً واسعاً[٣] فابتعد عني زمناً طويلاً، فلا أراك فيه ولا تكلمني، ليبين له عن امتعاضه، وكراهته لما عَرَضَه عليه من الحق المبين. ونقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى قول ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه ميمون بن مهران: اهجرني طويلاً، وبه قال الحسن والفراء، والأكثرون. قال ابن قتيبة: اهجرني حيناً طويلاً[٤] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في ترجيحه، أي: واهجرني سوياً، سليماً من عقوبتي[٥] وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي: اعتزلني سالم العرض، لا يصيبنك مني معرة[٦] ولا يمنع أن دلالة الجملة تجمع بين الاعتزال الزمني والاعتزال الفعلي بالترك والإقلاع عما تقول. فيكون الهجر بترك ما أنت عليه. أي: بما يفيد ابتعد عني، وابتعد عما أنت عليه حتى لا يحصل لك مني ما تكره.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٥٥١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٣٦)

(٣) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٢/٧٩٧)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/١٦٦)

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٥٥٥)

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٧٥)

وفي هذا وعيد بالتهديد لإبراهيم عليه الصلاة والسلام من أبيه، وأنه تعامل معه تعامل الجاهلين من شدة تأثره بالكفر، وما اعتاد عليه من الشرك دون أن يتمعن في الحيثيات والدلائل الواضحة على بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام التي أوضحها له ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مما يبين ما هو عليه من العناد والغلظة حتى في أسلوبه مع ابنه الذي تحدث معه بكل أدب ولطف. ويفيد ذلك أن على العاقل أن يتمعن فيما يُطرح عليه، ليتبن الحق من الباطل، والخير من الشر، وألا يُقلل من منزلة من هو أصغر منه سناً، ويتواضع للحق أينما كان مصدره، وألا ينجرف وراء الكبرياء والعناد الذي يُفضي إلى الخسارة والندامة.

فيرد إبراهيم عليه الصلاة والسلام على أبيه بِرَدّ الصالحين ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ فيرد على أبيه بالرد المفعم بطيب الكلام، وسعة البال، والخالي من الفظاظة، ومسلك الغاضب من التهديد والوعيد ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾ فليس لك مني يا أبتي إلا السلام، الذي خلا من كل جدال وأذى، فلن تجد مني ما تكرهه، وما يُغضبك، لأن السلام يحمل دلالة المسالمة والأمن والاطمئنان من جانب إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وهي تحية توديع ومفارقة ومتاركة. مما يُعَلِّمُ غيره أدب التعامل مع الوالدين في أحلك الظروف وأصعبها وأوجعها، فهو الذي يتلطف مع أبيه بكل أدب واحترام، ليأخذه إلى الحق المستقيم، في الوقت الذي والده يريد أن يأخذه للكفر والجحود، ويهدده بأبشع التهديد وأقواه وأقساه، ليقابل ذلك بالسلام منه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾ وفي هذا السلام استمالة لقلبه، لعله يتأثر بهذا القول الطيب المبارك، الذي يحمل الأمن والطواعية والاستجابة، وينتفى منه الشر والعداوة.

ثم يُضيف إلى السلام مزيداً من البر ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ سأطلب من ربي أن يغفر لك، ويسامحك، ويعفو عنك، ويستر عليك ذنوبك، ويهديك إلى الحق، لأن في الاستغفار طلب رفع الذنب، وستره وابداله بالخير، مبيناً علة وسبب طلبه من ربه تبارك وتعالى لوالده المغفرة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ فإني عهدت من الله تعالى أنه بي كريماً لطيفاً، أي: أن لي عنده عناية، إذ هداني لعبادته، والإخلاص له، وجعلني نبياً. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الحفي: المبالغ في البر والإلطاف. يُقال: حفى به وتحفى إذا بَرَّهُ[1] وهو الذي يهتم بأمره وشأنه. كما أن في هذا البيان من الحفاوة به من ربه تبارك وتعالى ما يستدعي من والده التأمل والتفكر، واستثمار هذه الخصوصية والكرامة والمنزلة التي يحظى بها ابنه عند الله جَلَّ جلاله. فهذا دليل على أن لإبراهيم عليه الصلاة والسلام منزلة وحفاوة خاصة من ربه تبارك وتعالى، قد نالها من الله تعالى مِنَّة وكرامة وفضلاً.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/١١)

وفي هذا الأدب العظيم من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ما يستوجب استعطاف أبيه، وانقياده للحق مع الابن البار لأبيه، والذي يتوخى أن يزعجه بما يكره، فيلين له جانب القول والبر والإحسان الذي عادة ما تلين له قلوب الوالدين، ولو للاستماع لما يقول، والوقوف بجانبه، بدلاً من تهديده بالرجم والطرد والإبعاد. فيعطي إبراهيم عليه الصلاة والسلام درساً في بر التعامل مع الوالدين، ويعطي الأب آزر صورة للجفاء من بعض الآباء، وغلظتهم مع أبنائهم الذين يبرونهم بأجمل البر وأحسنه وألطفه. وهذا الدعاء من إبراهيم لأبيه بالاستغفار قبل أن ينهاه ربه جَلَّ في علاه عن ذلك، كما ورد في سورة التوبة ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

وعندما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما هو عليه والده من الإصرار على كفره وضلاله، وما هو عازم عليه من مفارقة ابنه له، قرر اعتزال أبيه وقومه والابتعاد عنهم ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ أي: أنني مباشر الاعتزال عنكم من غير تأخير، فأعتزلكم بالمفارقة والنأي عنكم، متبرئاً منكم ومما تعبدون من دون الله تعالى، فأهاجر بديني عنكم وعن ما تعبدون من دون الله تعالى، إذ لم تقبلوا نُصحي لكم. وقد تضمن الاعتزال المفارقة، واعتزال المخالطة ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ وكذلك اعتزال ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليعلن لهم تبرأه من معبوداتهم ومنهم، وأنه لا يعبد إلا الله تعالى الذي دعاهم إليه. مبيناً قوة عزيمته، وقوة طاعته لربه تبارك وتعالى حتى وإن تطلب ذلك مفارقة أبيه وقومه وبلاده، فهاجر عنهم إلى أرض الشام. مبيناً لهم التجاءه إلى الله تعالى ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّى ﴾ التجئ إلى الله تعالى بالدعاء، ومتمنياً من الله تعالى عنايته ومعيته وتوفيقه ونصرته، وأفادت جملة ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّى ﴾ قصر وحصر الدعاء الذي يحمل دلالة الرجاء والاستغاثة والاستعانة بالله تعالى وحده لا شريك له، ولا أشرك معه غيره، ومستغني به عن غيره، فإنه هو المعين، وهو الناصر، وهو الذي أتوجه له بالدعاء الخالص.

ولم يقصر الدعاء على مطلب محدد مُعَيَّن، بل كان شاملاً، ليشمل جميع ما يرجو من هداية أبيه، ومن تحصيل الولد الذي يستأنس به من وحشته وغربته عن ذويه وقومه ودياره ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ فأظهر استعطافه لله تعالى، وتواضعه بكلمة الرجاء ﴿ عَسَىٰٓ ﴾ التي تفيد الترجي والاطماع في

إجابة الدعاء من الله تعالى، وعدم القطع على الله سبحانه وتعالى بما يريده ويرجوه، وفي هذا أدب الدعاء، بالرغم من قوله فيما سبق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ مما يدل على أدب الدعاء، وأدب الخضوع والتذلل لله تبارك وتعالى ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: أرجو ألا أكون بدعاء ربي خائباً، بل يستجيب دعائي، فأكون رابحاً وسعيداً باستجابته لما أدعوه به، وأطلبه وأرجوه منه عَزَّ وجل، وقد عمم الدعاء ولم يحصره في شيء محدد معين، ليشمل دعاءه بما يتقوى به من الذرية، وما يطرد به وحشة الوحدة والمفارقة لقومه، وغيرها مما يرجوه من ربه تبارك وتعالى. فيعلن لهم بذلك أن من يكون الله تعالى معه فإنه لا يشقى، ومن لم يكن الله تعالى معه فهو شقي، وبما أنكم مع غير الله تعالى سيصيبكم الشقاء، فكونوا مع الله تعالى حتى لا يصيبكم الشقاء بالعذاب المقيم. فكان كل بيان يحمل العظيم من المعاني والدلالات التي يزخر بها كتاب الله تبارك وتعالى.

فعندما فارق قومه وبلاده وما أَلِفَهُ من الديار والأمكنة، ودعا ربه تبارك وتعالى، فإن الله عَزَّ وجل استجاب له، ووهب له إسحاق، ثم ابناً لإسحاق، وهو يعقوب عليهم السلام ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ فقد آنس الله تعالى وحشته بالذرية التي جعل فيها النبوة ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فلما اعتزل قومه ووطنه، وما كان يألفه من الديار والأمكنة، وما كانوا يعبدونه من الأصنام، وتكبد بذلك مشاق السفر والفراق، قال الله عَزَّ وجل ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ رزقناه بابن، وهو إسحاق، وجاء لإسحاق ابناً، وهو يعقوب عليهم الصلاة والسلام، بل إن من فضل الله تعالى أن جعل فيهما النبوة ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ أي: في إسحاق ويعقوب، فوهب الله تعالى له في ذريته النبوة، مما يفيد أن من ترك شيئاً لله تعالى عَوَّضَهُ اللهُ عَزَّ وجل خيراً منه. فعوض اللهُ جَلَّ شأنه عبدَه وخليلَه إبراهيم عمن تركهم أولاداً صالحين، بل جعلهم أنبياء، فقد وُلِد ليعقوب يوسف، وهو نبي كأبيه يعقوب، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إبراهيم، من نسل إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾: أي: كل واحد منهم جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض[1] فهو تخصيص يفيد التعيين، والتنصيص عليهما، وهما إسحاق وابنه يعقوب، مما يدل على أن التنصيص هو لرفع منزلتهما، وبيان لفضل الله تعالى على إبراهيم أثناء تلك المحنة التي كان فيها مع أبيه وقومه. ولا ينفي السياق أن يكون من نسله ومن ذريته أنبياء. فإسماعيل ابن إبراهيم نبي،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٣٧)

ومن نسله رسول الله ونبيه محمد صلى الله عليه. وكذلك جاء ليعقوب ابنه يوسف وهو نبي، مما يدل على أن التنصيص هو لرفع منزلتهما، وبيان لفضل الله تعالى على إبراهيم أثناء تلك المحنة التي كان فيها مع أبيه وقومه.

ومن كرم الله تعالى على رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وابنيه إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ما وهبهم من رحمته وفضله العظيم الذي لا يُعد ولا يُحصى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ فمن فضله وكرمه سبحانه وتعالى أن وهبهم من لدنه فضلاً عظيما ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم وابنيه: إسحاق ويعقوب رحمة الله عَزَّ وجل. والرحمة من الله تعالى: عطاء شامل جامع لكل خير تحقق لهم. ووصف سبحانه وتعالى هذا العطاء بالهبة، وهي التفضل من غير مُوجِب لها، لتفيد المبالغة في الإكرام والعناية والحفاوة بإبراهيم عليه الصلاة والسلام. خاصة وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وزوجته قد بلغا من العمر درجة الشيخوخة التي لا يكون منها الولد، كما جاء في سورة هود ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ فيكون موقع الهبة ودلالتها متحققة فيهما من هذا الوجه بالذات، وكذلك من غيره من أوجه الإكرام والحفاوة.

ومن مزيد التفضل تعميم عطاء الرحمة عليهم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ والرحمة من الله تعالى: عطاء شامل جامع لكل خير تحقق لهم، من الذرية الصالحة، التي كثرت فيها النبوة، والصالحون، والصلاح، والإحسان، وسعة الرزق والحكمة والعلم. قال المفسرون: المال والولد والعلم، والعمل[1] وتشمل الرحمة كذلك ما ذكره الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: بأن جعلناهم أنبياء، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء، لبيان أن النبوة هي من باب الرحمة، وقيل المراد بالرحمة هنا المال، وقيل الأولاد، وقيل الكتاب، ولا يُبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور[2] مما يدل على سعة دلالة الرحمة من الله تعالى، بأنها تستوعب كل خير يصيب العبد، أو العباد.

ومن دقائق البيان وجود حرف ﴿مِّن ﴾ في قوله تعالى ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ لتفيد التبعيض، بأن ما تحقق لهم هو شيء من رحمتنا الواسعة الكثيرة التي ليس لها حدود، وهذا بعض ما أصابهم من رحمتنا في الدنيا، وتبقى رحمته بهم تبارك وتعالى في الآخرة. مما يفيد ويبين أن رحمة الله تعالى عظيمة ليس لها حد، ولا حدود،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٧/٣)

فإن ما في الدنيا من الرحمات هي جزء. قال صلى الله عليه وسلم (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه)[١]

ومن مزيد كرم الله تعالى أن كتب لهم الثناء والذكر الحسن ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكراً وثناء حسناً، مرتفعاً عالياً بين الناس. ومن جميل البيان أن جاء التعبير عن الثناء الحسن بجارحة اللسان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لأنها تقوم مقام القول، فلا يكون القول إلا باللسان. وفي هذا مدح وثناء عليهم بخصلة الصدق، التي تحمل معاني كمال الثناء والتزكية من الله تعالى، ورفعة المكانة بين الناس، كما وصفها سبحانه وتعالى بالعلو ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ بما يدل على العلو والارتفاع، إذ أن جميع من بعدهم من المرسلين والأنبياء وعباد الله المؤمنين يثنون عليهم، فارتفع ذكرهم ارتفاعاً مستمراً إلى أن يرث اللهُ تعالى الأرض ومن عليها، وفي هذا آية إعجاز يشاهدها الإنسان، ويتلفظ بها المؤمن، ومن ذلك ذكرهم في تشهد الصلوات التي يصليها المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال ابن جرير: إنما قال علياً لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٢] وهذا من عظيم التكريم من الله تعالى لهم، مما يبين أن الله تعالى إذا أكرم عبداً من عباده فإنه لا يضمحل ذلك الإكرام ولا يندثر، ولا يزول إن أثبته وثبته الله تعالى له. ومن ذلك ذكر الصحابة رضي الله عنهم، والعلماء الصالحين، الذين يتوارث الناس علمهم ويتناقلونه بينهم، من جيل إلى جيل. فاسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل وغيره عملاً مباركاً نافعاً، وأن يكتب له القبول، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ
وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ
إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٩١/٤) برقم (٦٠٠٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣١/٣)

ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم العظيم إلى التعريف بمقام ومنزلة عدد من المرسلين، والإشادة بهم من ربهم تبارك وتعالى، مُبتدئاً بموسى عليه الإسلام ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ يأمر الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ على الناس من القرآن الكريم قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾ والأمر بذكر موسى عليه السلام وما بعده من البيان يفيد الثناء والمدح والإشادة والتبجيل والتعظيم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ فقد كان مخلصاً لله تعالى في عبادته وفي شأنه كله، وقد استخلصه الله تعالى واصطفاه لرسالته. فاشتملت دلالة ﴿ مُخْلَصًا ﴾ على حقيقة الإخلاص، وحقيقة الاستخلاص والاصطفاء، قال الزجاج: الْمُخْلِص، بكسر اللام الذي وحَّد الله، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله، غير دَنسة، والْمُخْلَص، بفتح اللام الذي أخلصه الله، وجعله مختاراً خالصاً من الدنس[1] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: بكسر اللام من المخلِص، بمعنى: إنه كان يُخلِص لله عبادته، ويُفرِدُه بالألوهية، من غير أن يجعل له فيها شريكاً، وقرأ ذلك عامة قُرّاء أهل الكوفة، خلا عاصم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ وبفتح اللام من مخلَص، بمعنى: أن موسى كان الله قد أخلصه واصطفاه برسالته، وجعله نبياً مرسلا[2] وهذا ثناء عظيم وتزكية كبيرة من الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام، بأن يَصِفَهُ عَزَّ وجل بالإخلاص الذي وصفه وزكاه به، مما يدل على منزلة ورفعة الإخلاص لله تعالى، وهي الصفة التي لا يقبل الله تعالى عبادة من عباده إلا إذا كانت خالصة له عَزَّ وجل، فلا يقبل العبادة الصحيحة ما لم تكن مع صحتها خالصة له تبارك وتعالى، مما يفيد أهمية الإخلاص ومنزلته، وأنه محل الثناء منه تبارك وتعالى. كما اشتمل وصف ﴿ مُخْلَصًا ﴾ على رفعة المنزلة والمقام، بأن حضي بالاصطفاء من بين خلقه في زمانه، فكان رسولاً نبياً.

ومما له من المقام والمنزلة أنه عليه السلام كان نبياً ورسولاً ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فقد خَصَّهُ سبحانه وتعالى بمقامي النبوة والرسالة. والرسالة نبوة، والنبوة قد لا تشتمل على الرسالة، فالنبي يُوحى إليه، من غير أن

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٥)

(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٨/١٥)

يُكَلَّف بتبليغ الرسالة للناس، والرسول يُوحى إليه ومُكَلَّف بتبليغ الرسالة لمن أرسله الله تعالى إليهم. فمن كان رسولاً فهو نبي، ومَن وُصِف بالنبوة فقط، ولم يكن رسولاً فهو نبي فقط.

ومن دقائق البيان إعادة حرف ﴿كَانَ﴾ إذ لم يكتف بعطف الصفة الثانية على الأولى، بل أفردها، بإعادة ﴿كَانَ﴾ لتفيد الإظهار والتفخيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: إنما أعاد ﴿كَانَ﴾ لتفخيم النبي المذكور(١) وكذلك ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فوصفه بالرسول وبالنبي، لأن النبي يُوحَى إليه، وغير مكلف بإبلاغ الناس، والرسول يُوحَى إليه ويُكلف بإبلاغ غيره. قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة. فالرسالة تقتضي تبليغ كلام الْمُرْسِل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دِقَّهُ وجله. والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه، وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصَّه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه وأفضلها، وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الله(٢) وهي منزلة عظيمة كريمة، وقد ذكر الله تعالى هذا التقريب بقوله عَزَّ وجل ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾

فمما أكرم اللهُ تعالى به موسى عليه السلام أن ناداه ربه ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ أي: فكلمناه، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والنداء الكلام الدال على طلب الإقبال(٣) وهو التنبيه له من ربه جَلَّ في علاه، ليفيد مباشرة الكلام لموسى عليه السلام من ربه سبحانه وتعالى مباشرة ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: كان النداء لموسى عليه السلام وهو بجانب الطور الأيمن. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: الجانب ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح، فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غربية عند شاطئ الوادي، فكلمه اللهُ تعالى، وناداه وقربه فناجاه(٤) فكان النداء ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ والطور هو جبل بين مصر ومدين اسمه زَبِير(٥) قال ابن عاشور: الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر، ويُقال له

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٥)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٧/٣)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٣/٧)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣١/٣)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٥)

طور سيناء[١] فيكون كلام الله تعالى لموسى عليه السلام من ذلك الجانب الذي هو من يمين موسى عليه السلام، مما يفيد أن مقام اليمين أفضل من مقام الشمال. ودليل على منزلة موسى عليه الصلاة والسلام بتكليم ربه له مباشرة.

ثم أخبر اللهُ سبحانه وتعالى بأنه قَرَّبَهُ مناجياً له ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ أي: وأدنيناه مناجياً، والتقريب الإدناء وإسماع الكلام عن قرب، وهو بيان لمقام التشريف وعظيم التكريم الذي حظي به موسى عليه السلام. قال السعدي رحمه الله تعالى: والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو: الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك. وفي هذا اثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة[٢] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أُدنِي حتى سمع صريف القلم...يعنون صرف القلم بكتابة التوراة، وقال السدي عن ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ قال: أُدخِل في السماء فَكُلِّم[٣] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه[٤] وفي هذا ما يبين منزلة موسى عليه السلام، وتخصيصه بما خصه الله تعالى به، وأن لله تعالى ما يشاء وكيف يشاء مع عباده، وأن لكل رسول منزلة وفضل معين.

ومما تفضل الله تعالى به على كليمه موسى عليه السلام أن جعل له أخاه هارون وزيراً ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ أي: أعطيناه تفضلاً وتكرماً من نعمتنا أن جعلنا أخاه هارون نبياً معه، زيادة عن أن يكون وزيراً، وذلك استجابة لدعاء وطلب موسى بأن نجعل له أخاه هارون وزيراً. كما ورد في سورة طه ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ أي: مساعداً ومعيناً يشد من عضدي، ويؤازرني فيما كُلِّفتُ به من أمر الرسالة. فالوزير من المؤازرة التي يتقوى بها الإنسان على شأنه وأمره.

ووصف سبحانه وتعالى هذا العطاء بالهبة ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ وهي التفضل من غير مُوجِب لها، لتفيد المبالغة في الإكرام والعناية والحفاوة بطلب موسى أن يجعل له هارون وزيراً. كما جعل هذا العطاء رحمة ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ والرحمة من الله تعالى: عطاء شامل جامع لكل خير تحقق لهم، وهذه الاستجابة للطلب هي بعض من رحمة الله تعالى.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٣/٧)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٨/٣)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣١/٣)
(٤) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٨/٣)

ومن دقائق البيان وجود حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ لتفيد التبعيض، بأن ما تحقق له هو شيء من رحمتنا الواسعة الكثيرة التي ليس لها حدود، مما يفيد تعددها وتنوعها. وتبقى رحمته بهم تبارك وتعالى في الآخرة. مما يفيد ويبين أن رحمة الله تعالى عظيمة ليس لها حد، ولا حدود، فإن ما في الدنيا من الرحمات هي جزء. قال صلى الله عليه وسلم (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه)[١]

وهارون أكبر منه سناً. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون أكبر من موسى[٢] مما يفيد في مجال القيادة والإدارة أن للأصغر أن يتولى زمام القيادة والرئاسة على من هو أصغر منه سناً، إذا كان مستحقاً لها بفضل تدبير وإدارة، وأن على الأكبر ألا يستنكف من ذلك، بل يطيع ويأتمر، كما كان هارون مع موسى. كما يدل على أن من أعطاه وولاه الله تعالى أمراً فعلى وزرائه وأعوانه أن يطيعوا أمره، حتى وإن كان أصغر منهم سناً، وأن عليه أن يتعامل معهم كوزراء وأعوان، فيأمرهم وينهاهم بما يراه. وهي قاعدة مهمة في الإدارة والقيادة على أي مستوى كان. وكذلك فيه من الفوائد أن يطلب الأصغر ممن هو أكبر منه سناً إعانته، وأن يستفيد من خصائص من هم دونه، كما استفاد موسى من فصاحة أخيه هارون الذي يكبره سناً.

ثم ينتقل السياق الكريم العظيم إلى التعريف بمقام ومنزلة إسماعيل عليه السلام، وما أشاد الله تبارك وتعالى به ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ واتلوا يا أيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على الناس من القرآن ما فيه شأن إسماعيل عليه السلام من الإشادة والمدح والثناء ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، الذي خرج منه النسل العربي، والذي منهم خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد ولد آدم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. وفي تخصيصه وتعيينه بالذكر تنبيهاً وتكريماً له، وإظهاراً لمكانته ومنزلته عند الله تبارك وتعالى، وهو الذي شارك والده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في بناء الكعبة، وهو جد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن جليل صفاته عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ فإنه كان صادق فيما يعد به، وفياً في وعده، فلا يعد وعداً إلا وفَّى به، حتى اشتهر به، واصبح الوفاء صفة ملازمة له، وقد وَفَّى مع أبيه إبراهيم عندما رأى أن يذبحه، ففداه ربه بذبح عظيم. وقد استهل الوصف بحرف التوكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ ثم تلاه ﴿كَانَ﴾ الذي يفيد أنه متصف بهذه الصفة منذ كان، ومستمر عليها حتى توفاه الله سبحانه وتعالى. ووردت صفة الصدق عامة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لتشمل جميع أنواع الصدق في الوعد، وجميع ما يتعلق به، فهو صادق مع الله

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٩١/٤) برقم (٦٠٠٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦١/١٥)

تبارك وتعالى، ومع والده، ومع الناس جميعاً. مما يدل على أهمية ومنزلة هذه الصفة الخلقية الكريمة الرفيعة، وأن الله تعالى يحب من عباده مكارم الأخلاق، وأنها محل المدح والثناء من الله سبحانه وتعالى.

ومن صفاته التي خَصَّه الله تعالى بها النبوة والرسالة ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فقد حضي بمنزلتين كريمتين، هما النبوة بما يوحيه الله تعالى إليه، ورسولاً بما كُلِّف به من إبلاغ رسالة الله تعالى لمن أُرسِل إليهم. فكان من أنبياء الله تعالى ورُسُلِه. مما يدل على كريم الاصطفاء الذي حظي به إسماعيل عليه السلام. وقد كانت رسالته بشريعة أبيه إبراهيم إلى قبيلة جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بمكة، حيث كانت وادٍ غير ذي زرع، فسكنوها، ثم تزوج منهم إسماعيل بعد أن كبر.

ومن صفات إسماعيل في تربية أهله على طاعة الله تعالى أنه كان يأمرهم بأداء العبادات ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ فكان مواظباً في توجيه أهله على أداء الصلاة والزكاة ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ وسمى الله سبحانه وتعالى توجيه إسماعيل عليه السلام لأهله بالصلاة والزكاة بصفة الأمر ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ ﴾ ليفيد الحزم، والمثابرة عليها، وعدم التراخي في القيام بذلك، مما يدل على أن من واجبات الزوج والأب أن يعتني بعبادة أهله عموماً، من غير تراخٍ، وأن ذلك من مسؤولياته. وأن القيام بها محل مدح وثناء له. وفي تخصيص الصلاة والزكاة من بين العبادات ما يدل على أهميتها وعظمة شأنها، لأن الصلاة تمثل العلاقة بين العبد وربه تبارك وتعالى، ويتمثل فيها الطاعة والإخلاص. وأما الزكاة فهي تمثل طاعة الله تعالى فيما يتعلق بالتعامل مع الناس، بإيصال الزكاة إليهم، لما فيها من الإحسان، والتفقد لأحوال العباد، ومن ذلك العناية بالفقراء والمساكين وغيرهم. مما يفيد أن عبادة الله تعالى متضمنة لجانبين عظيمين، هما ما يتعلق بالله تعالى، كالصلوات، وما يتعلق بالعباد من المعاملات، وأنها جميعاً من واجبات المسلم، مما يؤكد أن دين الله تعالى قائم على أسس عظيمة جليلة، تحث الإنسان وتعلمه وتدربه على أوجه التعامل المختلفة، وتربي فيه خصال الخير، والإخلاص لله تعالى، وجميل التعاون مع غيره من عباد الله تعالى.

وتفيد كلمة ﴿ أَهْلَهُۥ ﴾ الشمولية لكل من هم تحت ولا يته وفي بيته، من الزوجة والأولاد والخدم، ويدخل في ذلك قومه وعشيرته. قال مقاتل: يعني: قومه. وقال الزجاج: أهله: جميع أمته[١]

ومن مقامه ومنزلته عند الله تبارك وتعالى أنه كان مرضي الخصال ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ أي: أن الله تعالى قد رضي عنه، لإخلاصه وامتثاله في طاعته لربه تبارك وتعالى، فإنه لاستقامته وكريم طاعته لربه

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٨/٥)

جَلَّ في علاه أنه كان مرضي الخصال، صالحاً زاكياً من الله عَزَّ وجل، وهي منزلة عظيمة أن يكون الله سبحانه وتعالى راضياً عنه، بل أثنى عليه ومدحه بهذا الرضا الذي هو تزكية كاملة له من عند ربه عَزَّ وجل. مما يدل على محبة الله تعالى لعباده الذين استقاموا، واتصفوا بمكارم الأخلاق والطاعة والامتثال له سبحانه وتعالى، وأنهم محل الثناء والتكريم. اللهم وفقنا لطاعتك وحُسن عبادتك، وأن تجعلنا ممن رضيت عنهم ورضوا عنك.

ثم ينتقل السياق الكريم العظيم إلى التعريف بمقام ومنزلة إدريس عليه السلام، وما أشاد الله تبارك وتعالى به ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾ واتلوا يا أيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على الناس من القرآن ما فيه شأن إدريس عليه السلام من الإشادة والمدح والثناء ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ ﴾ ذكر القرطبي رحمه الله تعالى أن إدريس عليه السلام: هو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب وسيرها. وسُمِّيَ إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى[١] وهذا يدل على أنه متقدم في نبوته، وقد قيل أنه قبل نوح عليهما السلام، ونقلت بعض كتب التفسير ومنهم الشوكاني رحمه الله تعالى أنه جد أبي نوح عليهما السلام[٢] وقد ذكره الله تعالى بالثناء والمدح والتبجيل والإكرام والتكريم لمقامه عليه السلام، ووصفه بصفتين عظيمتين: الأولى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا ﴾ أي: كان صادقاً ومبالغاً في تحري الصدق قولاً وعملاً، وكذلك صادقاً فيما يعد به، فقد كان ملازماً للصدق في جميع شؤونه وأحواله، حتى أصبح الصدق صفة ملازمة له. والصفة الثانية: أنه كان ﴿ نَّبِيّٗا ﴾ فجمع الله تعالى له بين صفة الصدق ومنزلة النبوة، فيوحي إليه ربه تبارك وتعالى من أمره بما يشاء. والصفة الثالثة: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ورفعنا ذكره في العالمين، وهو شرف النبوة، والمنزلة العالية في الآخرة، فإن جملة ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ عامة تشمل منزلته في الدنيا والآخرة، فلم تكن مخصوصة بنوع ولا زمن ولا مكان محدد، وقد ورد في حديث الإسراء والمعراج أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى السماء الرابعة فوجد فيها إدريس عليه الصلاة والسلام، فسلم عليه، قال عليه الصلاة والسلام (فأتيت على إدريس فسلمت عليه، فقال: مرحباً من أخ ونبي)[٣] وفي هذا الوصف مع الثناء من الله تعالى ما يحث المؤمنين على التأسي بالأنبياء في أخلاقهم وعبادتهم، وطاعتهم لربهم تبارك وتعالى.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/١١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٨/٣)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٢/٢-٤٢٤) برقم (٣٢٠٧)

ثم يُجْمِلُ اللهُ تبارك وتعالى الثناء على المذكورين من النبيين وممن هداهم واجتباهم بوصف تذللهم وخشوعهم في حالتين تستجمع كمال التذلل وكمال الخشوع، وهما السجود والبكاء عند سماعهم آيات ربهم تبارك وتعالى وهي تُتْلَى عليهم ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ فهؤلاء المقصوص عليك خبرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين أنعم الله تعالى عليهم بفضله ومنه وكرمه، فاصطفاهم وجعلهم أنبياء، من ذرية آدم، ومن ذرية من حملهم مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهم، وذرية يعقوب، وممن هديناهم للإيمان، واصطفيناهم للنبوة والرسالة، فإنه أذا تتلى عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سجداً، وهم في حالة بكاء من خشية الله تعالى.

ومن قوة البيان وإعجازه أن ألحق بالمذكورين من الأنبياء في هذه السورة غيرهم، وهم جنس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك من تولاهم ربهم بالهداية ﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ فشملت جميع الأنبياء، ومن تولاهم الله تعالى بالهداية والتوفيق، واجتباهم. وبهذا يجتمع ما أشار إليه بعض المفسرين بأنهم المذكورين فقط، وما أشار إليه ابن كثير رحمه الله تعالى بأنهم جميع جنس الأنبياء، قال رحمه الله تعالى: وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام[١] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: هؤلاء الذين اقتصصت عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد[٢] صلى الله عليه وسلم. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: يعني الذين ذكرهم من الأنبياء في هذه السورة[٣] فمن أصحاب التأويل من نظر إليها باعتبار ما بعده، ومنهم من نظر إليها باعتبار ما قبلها من المذكورين من النبيين عليهم الصلاة والسلام، فكل منهم نظر لها من زاوية. وهذا من إعجاز القرآن الكريم المتضمن لغزارة وعمق البناء الذي يجمع الدلالات في سياق واحد من غير تكرار.

فتصدرت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ والتي حددتهم، بأنهم المذكورين سلفاً فيما سبق من الآيات، الموصوفون بما أنعم الله تعالى عليهم من التخصيص والاصطفاء ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٣/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦١/١٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٠/٥)

﴿ مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وخصهم بصفة النبوة دون ذكر الرُّسُل، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، فذكرهم بما يجتمعون فيه، وهذه من دقائق الإعجاز وبلاغته في البيان، بالاستغناء بما يستوفي به المقصود والمراد.

ثم جاء التفصيل الإجمالي والدقيق ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ قال ابن كثير: قاله السدي وابن جرير[١] وهو ما ذهب إليه القرطبي رحمهم الله جميعاً: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ يريد إدريس وحده ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم وحده ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يريد إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ﴿ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ومن ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى. فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿ وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ بالإيمان[٢] أي: الصالحون من العباد، الذين هداهم ووفقهم ربهم تبارك وتعالى.

فمن صفات هؤلاء ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ فإذا تُليت آيات الله تعالى عليهم سجدوا لله تعالى، تذللاً وتعبداً، وأجهشوا بالبكاء خشوعاً وتأثراً من خشية الله تعالى، وفي الجمع بين السجود والبكاء ما يدل على قوة الخشوع والتأثر حتى بادروا بالسجود الذي خروا له ﴿ خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ والخرور يعبر عن السرعة. وفي ذلك تنبيه ولفت نظر إلى هيئتهم في السجود بأنها تفاعل وتأثر حتى كان حال خرورهم وهويهم للسجود كمن سقط مع صوت التسبيح أو التكبير للسجود، بأن وضعوا جباههم على الأرض، مع البكاء نتيجة تفاعلهم القلبي مع ما يسمعون أو يتلون من آيات الله تعالى. مما يبين عظيم خشيتهم التي تستدفع المؤمن إلى أن يكون حاله كحالهم عليهم السلام. مما يدل على قوة تأثير آيات الرحمن المتلوة، وأن لها أثر في القلوب، إذ يتفاعل القلب معها، ثم يتأثر إلى درجة انعكاسه على الجوارح بالخضوع والتذلل، فيظهر في السجود، وسرعة الانخراط فيه، والخرور إلى الأرض، وأعظم الكتب القرآن الكريم. وهذا يعلم المؤمن أهمية تعظيم الله عَزَّ وجل، وأهمية تعظيم آياته، لينعكس الأثر على النفس والجوارح بالطاعة والانقياد، والخشوع والانكسار لله تعالى. وفي هذا ترغيب لغيرهم في الاقتداء والتأسي بهم.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٣/٣)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨١/١١)

إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

ينتقل الإخبار من الله تعالى إلى ما حدث من بعد هؤلاء الْمُنعَم عليهم من النبيين والصديقين، إذ جاء بعدهم أهل سوء، فبدلوا وغيروا نعمة الله عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ فقد أعقب أولئك النبيين والصالحين مَنْ خَلَفَهم بسوء وشر ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي: جاء بعد هؤلاء الموصوفين بالمدح والثناء خلف آخر على غير نسقهم، وعلى غير نهجهم في الصلاح، والخلْف بسكون اللام، هم: الأولاد. والواحد والجميع فيه سواء، والخَلَف بفتح اللام: البدل، سواء كان البدل ولداً كان أو غريباً[1] فأعطت دلالة ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ كل من يخلفهم سواء من قريب أو بعيد، وسواء كان من حيث الزمن أو المكان، وسواء كان قريبا منه أو غريباً عنه. فإن هؤلاء الخلف من أهل السوء قد اتصفوا بمظاهر السوء، وأعظمها ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فقد أضاعوا الصلوات. وباعتبار تعدد الأنبياء السابق ذكرهم، فإن الخلف يكون لكل منهم، وكذلك لمن بعدهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جمع ابن الجوزي رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك، فقال: وفي المراد بالخلف ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم اليهود، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثاني: اليهود والنصارى، قاله السدي. والثالث: أنهم من هذه الأمة، يأتون عند ذهاب صالحي أمة محمد صلى الله عليه وسلم[2] وهذا يُعطي صورة لكل أمة من أمم الأنبياء والمرسلين بما حصل من بعدهم، وفيه تحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من أن يحصل ذلك منهم. وفيه كشف لكل أمة من أهل الكتاب أن هذا هو الذي حصل فيهم. ولذلك قال بعض أهل العلم أن المقصود بهم اليهود والنصارى. وسياق التوجيه يجمع بغزارة بيانه عظيم الدلالات في سياق موجز بليغ، بإعطاء المعاني التي تستوعب الكشف عمن خلف أتباع الأنبياء السابقين، وما يجب عليهم من اتباع سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كشف الله تعالى به واقعهم. كما أن في ذلك موعظة وتنبيهاً وتحذياًر لهذه الأمة من أن يسلكوا مسلك من كان قبلهم من الأمم.

فإن هؤلاء الخلف من أهل السوء قد اتصفوا بمظاهر السوء، وأعظمها ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فقد أضاعوا الصلوات، والتي اشتملت معاني إضاعتها على جميع أوجه الإضاعة، سواء بتركها، أو بجحودها، والكفر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٧/٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧١/٥)

بها، أو تأخيرها عن وقتها، أو تحريف أركانها أو واجباتها أو سننها، أو شيء مما يتعلق بها، فلم يأتوا بها على الوجه المشروع، وقد أشار إلى هذه المعاني والدلالات أهل العلم في كتب التفسير، ومنهم ابن جرير[١] وابن كثير[٢] والقرطبي[٣] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها، وقيل أضاعوا الوقت. وقيل: كفروا بها، وجحدوا وجوبها. وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضاً من فروضها، أو شرطاً من شروطها، أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة، أو جحدها دخولاً أولياً[٤] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: قال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها، وهو الصحيح[٥]

وإضاعة الشيء يفيد فقده بعد تحصيله، فيكون الفقد كلياً، أو فقد جوهره وما يقوم عليه من أسس، كفقد الأركان والواجبات للصلاة، فيكون قد فقد الصلاة وأضاعها بعد أن كان محصلا لها. فتأخيرها عن وقتها هو فقد لها، لأنه لم يحصلها كما حددها سبحانه وتعالى. وكذلك من أخل ببعض أركانها وواجباتها، فقد أضاع جوهرها وهيئتها، فضلاً عمن تركها أو جحدها، أو جحد وجوبها. مما يفيد وجوب المحافظة على الصلاة في أوقاتها، وبهيئتها وأركانها وواجباتها، وأنها عماد الدين، وأن من أضاعها فقد خالف نهج الأنبياء والمرسلين. وأن إضاعة الصلاة من الكبائر. وتركها أو تغييرها أو جحودها خروج من الملة. وفي هذا ترغيب لغيرهم من الخلف أن يسيروا مسار الأنبياء في المحافظة على الصلوات، والاقتداء والتأسي بهم في المحافظة عليها، وإقامتها وفق شريعة الله تعالى التي أنزلها على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من صفات الخلف من أهل السوء، أنهم مع إضاعتهم للصلاة ذهبوا للشهوات المحرمة ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وتتبعوا وتقصَّوا الشهوات التي تميل إليها النفس من المحرمات، واقتفوا الشهوات المحرمة، واتجهوا إليها طلباً وتحصيلاً واقترافاً لها. فلا يتورعون عنها. بل وفي الربط بين ترك الصلاة واتباع الشهوات، ما يدل على أنهم زهدوا في الصلوات من أجل تحصيل الشهوات، وأن الشهوات قد أصبحت لديهم هي المقصد والأمل، فلم يبالوا بالصلوات، وبالتالي لم يبالوا بالعقاب والحساب والعذاب، فاستعبدتهم شهواتهم، ونزعت منهم صلواتهم. وفي هذا تحذير من اتباع الشهوات، فإنها تجرف الإنسان عن طاعة الرحمن، وتحري مرضاته، وطاعته، والتي منها إقامة الصلاة. فقد تجذب شهوة المال صاحبها فيؤخر الصلاة عن وقتها، وقد تغلب

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٥٦٧-٥٧١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٣٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٨٢)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٣٩)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٨٢)

على الإنسان شهوة الجلوس مع المعطلين للصلاة فيؤخرها عن وقتها، وقد يغلب على الإنسان بقية الشهوات أو شيء منها، فيجري وراءها، تاركاً للصلاة، وربما استخف بها، ولم يؤدها، أو أحياناً يؤديها، ويتركها أحياناً.

ومن دقة البيان الكريم أنه لم يحدد شهوات محددة، لأن لكل أحد من الناس ما يجذبه من الشهوات المحرمة، لتستوفي كل شهوة محرمة يتبعها الإنسان، حتى لو لم تعطله عن الصلاة، فإنها محرمة في ذاتها، وفي إتيانها. ونسأل الله تعالى السلامة والتوفيق والسداد من عنده، فلا حول ولا قوة لأحد من خلقه إلا بالاستعانة به عَزَّ وجل، ومجاهدة النفس على الطاعة، وعلى توقي ما حرم الله تعالى، فقد حُفت الجنة بالشهوات كما جاء في الحديث.

ثم يخبر الله تعالى بأنه عَزَّ وجل قد رَتَّب لمن انحرف هذه العقوبة العظيمة ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ فهؤلاء الذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، سيجدون أمامهم عذاباً أليماً مضاعفاً ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قيل هو: اسم واد من أودية جهنم. فإنهم سوف يعاينون هذا العذاب ويلابسونه ملابسة الانغماس فيه، والغي هو عموم الشر من الخيبة والضلال، وهو واد في جهنم، وقيل نهر في جهنم. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى هو: اسم واد من أودية جهنم، أو اسم بير من آبارها[١] وفي هذا إنذار وبلاغ ونهي وترهيب، وموعظة وبيان لكل إنسان، ليحذر مما أنذره الله تعالى منه، وعليه أن يتبع مسلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن رحمة الله تعالى أنه استثنى من هذا الخلف المخالف فئة التوابين، من تاب واستقام ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ فاستثنى سبحانه وتعالى من أولئك الذين أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات التائبين منهم ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أي: الذين أقلعوا عن ذنوبهم، ورجعوا وتابوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً، فعزموا على الطاعة، وعدم العودة إلى ما كانوا عليه من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات. فأول الشروط: التوبة، والثاني: الإيمان ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أي: حقق الإيمان بأركانه، وابتعد عن الشرك، وعن جميع ما يخل بجناب الإيمان. والشرط الثالث: التطبيق العملي للصالحات ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وهي طاعة الله تعالى بما أمر، والانتهاء عما نهى، وأولها العبادات المفروضة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بالتوبة والإيمان

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧١/١٥)

والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ يدخلون الجنة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا يُنقصهم ربهم من أعمالهم الصالحة شيئاً، ولو جزءاً يسيراً، بل يوفيها لهم كاملة فضلاً منه ورحمة.

وقد رتب الله تعالى بمنه وفضله لهم مسلكاً للخروج من الوعيد بالعذاب الأليم بما يمكنهم من الالتحاق بالفائزين من عباده، فأول ذلك: التوبة ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وهي عملية قلبية وعملية، تشتمل على الإقلاع عن الذنب، والأسف والندم على ما فات، والعزيمة على الطاعة والامتثال، وعدم العودة إلى ما كان، ثم يتلو ذلك الشرط الثاني، وهو التصديق ﴿وَءَامَنَ﴾ أي يؤمن بأركان الإيمان، فيؤمن بالله تعالى رباً، فلا يشرك به أحداً من خلقه، ويؤمن برسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، ويؤمن بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث والجزاء والجنة والنار، وبالقدر خيره وشره. ثم يتلو ذلك الإيمان تحقيق الشرط الثالث: وهو التطبيق العملي لدين الله تعالى ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ وهي طاعة الله تبارك وتعالى بما أمر وشرع، وعلى رأسها العبادات المفروضة. وفي وصفها بأنها صالحة، إثبات بأن جميع ما أمر الله تعالى به من الأعمال هي صالحة في ذاتها، وصالحة في أدائها، ومصلحة لمن قام بها، بل وتجعل أثره على غيره صالحاً. فإنها متضمنة لجميع ما يُصلح حال الفرد والأسرة والمجتمع.

ثم أعاد سبحانه وتعالى ذكر الجنة مرة أخرى، بياناً وإظهاراً لها، وترغيباً في التوبة، وتشجيعاً وعناية للتائبين، مما يبين عظيم رحمة الله تعالى ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ وبدأ الوصف لها بأدق ما يكون الوصف ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ أي جنات إقامة، أي يقيمون فيها إقامة أبدية، خالدين لا يموتون فيها، ولا يُخْرَجُون منها. ولا من جميل ما فيها، وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى، أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[1] أي: في وسط الجنة الذي هو أعلاها، وهي إقامة دائمة لا تنقطع، وهي أعلى درجة في الجنة، وسقفها عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[2] وهي جنات استقرار وثبات. وكلمة ﴿عَدْنٍ﴾ استوعبت معنى العلو، وشملت الإقامة الدائمة، التي لا تحول ولا تزول، فلا نهاية لها.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

ووردت هنا بصيغة الجمع ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ لبيان كثرتها، وتعددها ﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ هذه الجنات الموعود بها في الآخرة، مع أنها في علم لغيب بالنسبة لهم، إذ لم يروها، فآمنوا بها، فإنهم يدخلونها حقيقة، ويعيشون فيها معيشة لا تنقطع، ولا تتغير، كما وعدهم ربهم سبحانه وتعالى بها، فإن وعده متحقق ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ فإن ما وعد سبحانه وتعالى به عباده متحقق لهم، يأتون ما وعدهم به، ويَصِلُون إليه حقيقة. وهو تأكيد الحصول على ما وعدهم به تبارك وتعالى.

ثم يستمر الوصف للجنة، وما فيها من النعيم المقيم، ترغيباً للعباد في الطاعة والتوبة، وهذا من عظيم رحمته وكرمه جَلَّ في علاه ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ فإن من نعيم اللجنة أن أهلها ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا ﴾ وهو الكلام الذي لا قيمة له، فضلاً عن الكلام الباطل. فجمعت وحوت كلمة ﴿ لَغۡوًا ﴾ جميع ما لا فائدة فيه، وهو ما لا يحبه الإنسان العاقل، وقد نفى الله تبارك وتعالى الأدنى من المنقصات، وهو ﴿ لَغۡوًا ﴾ بما يدل على انتفاء ما هو أعلى منه، كالكلام الباطل والفاحش، فنفى تبارك وتعالى أن يسمعوا شيئاً من ذلك البتة، لبيان أن حال نعيم الجنة ليس كحال الدنيا التي يسمع الإنسان فيها ما يكرهه من أدنى وأعلى اللغو في الكلام وفواحشه، فبذلك نزه الله تبارك وتعالى مقام الجنة وأهلها من اللغو، مما يدل على أهمية أن ينزه الإنسان نفسه عنه في الدنيا، فإذا مر المؤمن بالغو مَرَّ كريماً. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه، حيث نَزَّه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها. وما أحسن قوله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ ﴾ وقوله تعالى في سورة القصص ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥ ﴾ نعوذ بالله من اللغو والجهل، والخوض فيما لا يعنينا[١]

ومن دقائق البيان: ورود نفي السماع بصيغة المضارع ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ ﴾ الذي يفيد الاستمرار في نفي سماع اللغو، كما أن في نفي السماع، ما ينفي المشاهدة له. وهذا من دقائق البيان وبلاغة الوصف بالاستغناء عن زوائده، والاكتفاء بما يغني غيره عنه.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٦)

ثم حصر سبحانه وتعالى سماعهم فيما يسرهم ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ فلا يسمعون إلا تسليم الملائكة عليهم، وسلام بعضهم على بعض، وما يسلمهم ويأمنهم ويطمئنهم، وتنشرح صدورهم به، لأن السلام كما قال مقاتل وغيره، رحمهم الله تعالى: السلام اسم جامع للخير، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون[١] ومن جمال البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن استثناء السلام من اللغو، إذ أن السلام ليس من اللغو ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: قال أبو عبيدة: السلام ليس من اللغو. والعرب تستثني الشيء بعد الشيء وليس منه. وذلك أنها تُضمر فيه. فالمعنى: إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً. وقال ابن الأنباري: استثنى السلام من غير جنسه، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام، فليس يسمعون لغواً البتة[٢] وهذه من جماليات السياق في العرض والبيان.

ومن لذائذ الجنة وطيبها أن لأهلها رزقهم من غير عناء ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فرزقهم يحصل لهم من غير عناء ولا مشقة ولا طلب، يأتيهم رزقهم رغداً مما يشتهون ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال المفسرون: ليس في الجنة بُكرة ولا عشية، ولكنهم يُؤتون برزقهم على مقدار ما كانوا يعرفون في الغداة والعشي. قال الحسن: كانت العرب لا تعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداة والعشاء، فذكر الله لهم ذلك[٣] قال زهير بن محمد: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً[٤] مما يفيد أن ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ غير متعلقة بالنهار، ولا بالليل، وإنما وردت مخاطبتهم بالصفة والهيئة التي يعرفونها في الدنيا، فرزق أهل الجنة من غير انقطاع، لتفيد جملة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الكثرة والتعدد والامتداد الزمني، لأن في الجنة ما تشتهيه الأنفس، من غير تحديد بوقت محدد، فبمجرد اشتهاء الشيء يكون ذلك الْمُشْتَهَى كما اشتهاه الْمُشْتَهِي من أهل الجنة، فأوصاف الجنة ليست كأوصاف الدنيا، غير الأسماء المشتركة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٥/١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٢/٥)

(٣) المرجع السابق (١٧٢/٥)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٦/١٥)

كما يفيد ذلك في التعليم والتوجيه أهمية تقريب المعنى، ومخاطبة المتعلم والمدعو بما يعرف، وبما يُوصل العلم والمعرفة وصورتها إلى ذهنه بأقرب مفهوم لديه. وكذلك من دقائق البيان كلمة الرزق ﴿ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ ﴾ التي وردت عامة، لتشمل جميع أنواع الرزق من المطاعم والمشارب، والملبوسات، وأصناف لذائذ الجنة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن تلك الجنة الموصوفة هي للمتقين من عباده ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ فبدأ النص الكريم باسم الإشارة ﴿ تِلۡكَ ﴾ إعلاء لذكر الجنة، وشد الانتباه والتطلع إليها من عباده الْمُخَاطبين، ورفعة ورفعاً لذكرها ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ﴾ فتلك الجنة التي وُصِفَت لكم ﴿ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ فتلك الجنة المذكورة نورثها عبادنا المتصفون بالتقوى فَنُمَكّنهُم منها. وصفة المتقين أنهم الذين يخافون الله تعالى ويرجونه، فجمعوا بين الرجاء المتمثل في العمل والطاعة لِمَا أمر الله به، وبين الخوف المتمثل في الانتهاء عما نهاهم عنه سبحانه وتعالى. والموجب للانتهاء والابتعاد عما يُغضِب الله عَزَّ وجل، طمعاً في رضوان الله تبارك وتعالى ومحبته، ورجاء ما عنده، والخوف من مخالفته، وما أعده لمن عصاه.

ومن جميل البيان ودقة دلالته أن ورد تحصيل أهل الجنة لها بلفظة التوريث ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ بما يفيد التمكين منها من غير مشقة، كما يحصل الوارث على إرثه من مورّثِه من غير مشقة، فيتمكن من الميراث تمكن المالك. فكذلك الجنة يورثها الله تعالى لعباده المتقين. وفي هذا ترغيب وتحفيز وتشجيع للعباد في ابتغائها، وإشغال أنفسهم في الدنيا بما يحققها، وهي تقوى الله تعالى في السر والعلن.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا
مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ فَوَرَبِّكَ
لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ
أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ما حصل من استبطاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم للوحي، وذلك تشوقاً ومحبة منه عليه الصلاة والسلام لكلام رب الأنام، ولجبريل عليه السلام ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ

لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: نزلت من أجل استبطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام[1] فيأمر الله تعالى جبريل عليه السلام، أن يتلوا على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يشرح ويبين له شأن الملائكة في النزول من السماء: بأننا نحن معشر الملائكة ما نتنزل من السماء إلى الأرض إلا بأمر ربك سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ﴾ فلا يحصل لنا تتابع النزول يا معشر الملائكة إلا بأمر من ربك تبارك وتعالى يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. بما يفيد نحن عبيد لله تعالى، وأن نزولنا من السماء إلى الأرض ليس بحسب رغبتنا، بل مُقَيَّد بأمر الله تعالى. مما يبين أن الملائكة لا تعمل شيئاً إلا بإذن وأمر الله سبحانه وتعالى، فهي طائعة مطيعة له عَزَّ وجل، فلا تعمل إلا بما أُمرت به.

ثم تُوضح وتبين الملائكة عظمة مُلك الله تعالى، وقوة سلطانه وهيمنته على ملكه عَزَّ وجل ﴿ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ فإن له جَلَّ في علاه ما بين أيدينا ﴿ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا ﴾ مما هو مستقبل ﴿ وَمَا خَلۡفَنَا ﴾ أي: وما مضى منها ﴿ وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾ وهو الحاضر الذي ما بين المستقبل، وما بين الماضي، مما يفيد عظيم سلطانه على الأزمنة كلها، وعلى الجهات كلها، وعلى الأشياء كلها، ماض ومستقبل وما بينهما من الحاضر، فجميعها محصورة في أمره ومشيئته جَلَّ في علاه، وبالتالي لم نعمل ولن نعمل ولسنا عاملون إلا ما شاء، وما يشاء ربنا، فيأمرنا به. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أي من الجهات والأماكن، أو من الأزمنة الماضية والمستقبلية، وما بينهما من الزمان، أو المكان الذي نحن فيه، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة، أو من زمن إلى زمن إلا بأمر ربك ومشيئته[2] فاستوعب النص الكريم بشموله لجميع تلك الدلالات، وبأقل الكلمات والعبارات التي ارتقت بها البلاغة البيانية. مما يفيد أن الله تعالى محيط بكل شيء، إحاطة تدبير وعلم، وسلطان وإرادة، فلا يحدث في ملكه شيء إلا بإذنه عَزَّ وجل، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ومن صفات ربنا تبارك وتعالى أنه لا ينسى شيئاً ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ وإن ربك لم ينساك، فليس من شأنه ولا من صفته سبحانه وتعالى النسيان، فلا ينشغل بشيء عن شيء. وهذا من كمال ربنا تبارك وتعالى أنه لا يشغله شيء عن شيء، وأن النسيان من طبيعة الإنسان. فكيف ينسى هو ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٨/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٢/٣)

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ فهو رب السماوات والأرض، وما بينهما من مخلوقات ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وفي هذا استدلال على عظمة الله تعالى بما خلق، وفيه تعليم للعباد بكماله تبارك وتعالى، وتنزيهه عن النسيان الذي يعتري الإنسان. فمن كان له الملك كله فليس من صفاته النسيان.

ثم يتوجه البيان إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ فاعبد ربك أيها النبي، واصبر على أداء العبادات، وذلك بالاستمرار عليها، ولا تحزن ولا تنشغل لتأخر الوحي عليك. مما يفيد أن العبادة تحتاج إلى الصبر لتحصيل المداومة التي يريدها الله تعالى من عباده، فكلمة ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ تعني الصبر، التي مفادها المجاهدة والمغالبة. بل وردت بصيغة المبالغة والمفاعلة ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ التي تقتضي مجاهدة النفس، فالاصطبار هو شدة التصبر.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ نفي عَزَّ وجل بأسلوب الاستفهام الإنكاري أن يكون له مماثل سبحانه وتعالى. فعن مجاهد رحمه الله تعالى قال: هل تعلم له شبهاً، هل تعلم له مِثلاً[1] فليس له مثيل ولا نظير، فلا أحد يستحق شيئاً من صفات الله تعالى، وأن كل صفة من صفات خلقه ليست كما هي لله تعالى، فقد تنزه عن المثيل والشبيه تبارك وتعالى. فهو تقرير بأن ليس لربكم شبيه أبداً في كل شيء، فتنزه الله تعالى عن الشبيه والنظير. وفي هذا تعليم للأمة على وجه المخاطبة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

مما يبين أن العبادات تحتاج إلى مثابرة وملازمة بالاصطبار عليها، فالزكاة تحتاج مجاهدة، والصوم كذلك، والصلاة مثلها، والعدل من النفس، والصدق في القول والعمل، فكل عبادة لها نوع وقدر من الصبر، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: العبادة مراتب كثيرة، من مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس، فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض[2] فكل نوع من العبادة يحتاج قدراً من المصابرة. وفي مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بالاصطبار ما يُعَلِّمُ الأمة ويحثها إلى حاجتها الماسة إلى الصبر على العبادة، فإذا كان نبي الله صلى الله عليه وسلم، يؤمر بالصبر، فإن حاجة أمته على مجاهدة النفس أكثر حاجة للصبر على أداء العبادات.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٦/١٥)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩٢/٧)

ثم يكشف تبارك وتعالى عن مسلك وفهم الإنسان الْمُنْكِر ليوم البعث ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ يقول هذا الإنسان الكافر الْمُنْكِر للبعث في تساؤل من الاستنكار والنفي للبعث، مع صيغة تعجب من أن يُجمع عظامه بعد موته فَيُبعث حياً، فيقرر بذلك في نفسه استحالة ذلك ﴿ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ أيُعقل بعد الموت أن أعود إلى الحياة، فأخرج من بطن الأرض إلى سطحها حياً كما كنت قبل الموت؟ استنكار واستغراب، بما يفيد استحالة إعادة التكوين بعد فناء الجسد. مما يدل على أن هذا الإنسان الكافر قد قَصُرَ فِكرُهُ وقياساته بناء على قُصور قدراته، ولم يتأمل في قدرات الله تعالى، ويقيس شأن البعث والنشور على عظمة الله تعالى وقدرته العظيمة. وفي هذا تنبيه لمخاطر المقاييس الناقصة والقاصرة على العلم والفكر والتصور الناقص، فإنها تؤدي بالإنسان إلى سوء المآل. وقد ورد البيان عن قول الكافر بصيغة المضارع ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ ليفيد استمرارية الإنسان الجاحد على فكره واستنتاجه، نتيجة لجحوده، وعدم ترويض عقله لمن يهديه إلى التأمل والتفكر، وإلى الحقائق، فهو مستمر في غيه دون أن يقلع عن قوله النابع عن فكره الضال، بما يفيد التعجب والإنكار من معتقد هذا الإنسان الذي لم يفكر في أنه كان عدماً قبل وجوده. فإن الذي أخرجه من بطن أمه قادر على إخراجه من بطن الأرض. فكان في بطن أمه ماء مهين، وفي الأرض أشلاء، فمن أخرجه أولاً يُخرجه مرة أخرى.

كما أشار سبحانه وتعالى إلى هؤلاء الجاحدين بكلمة الإنسان ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ ليفيد تعيينهم من بين جنس هذا الإنسان بهذه الصفة المستغرب من قولهم لها. ولذلك قيل في سبب نزولها: أن أُبيَّ بن خلف أخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده، ويذريه في الريح، ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وروى عطاء عن ابن عباس: أنه الوليد بن المغيرة[١] فيجتمع معهما كل إنسان أنكر البعث. مما يبين أن دين الله تعالى يُوسِّع دائرة الفهم عند الإنسان، إذ يحثه على التأمل والتدبر، والاستدلال على الغيب بدلائل الحاضر، وعلى الغائب بالحاضر المشاهد، فمن يتأمل الأرض الميتة، كيف يحيها الله تعالى بالماء بعد موتها، ثم تموت، ثم يحيها فتنمو، ثم تموت وتفنى، وهكذا في عملية مستمرة. وبالتالي فما الذي يمنع عودة الإنسان والله تعالى له كمال القدرة. وكذلك إذا فكر في خلقه ووجوده، إذ كيف خلقه من العدم، وأوجده، وجعل فيه النمو، والانتقال من مرحلة الضعف والجهل، إلى مرحلة العلم والقدرة والقوة، ثم يتدرج كما بدأ إلى النسيان والضعف. فجميعها دلائل ترتقي بعقل الإنسان الذي يريد الحق ويبتغيه.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٥/٥)

فيعالج سبحانه وتعالى هذا الفكر الضال بحقيقة دامغة، وبرهان قاطع، فوردت الإجابة على نفس منوال من أنكر، بصيغة سؤال يحمل التعجب من إنكار البعث، كما تعجب الْمُنْكِر من البعث، مع أن الحقيقة ثابتة أمامه، ويعايشها كما يعيشها غيره من الناس ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ فيلفت الله تبارك وتعالى انتباه الإنسان الْمُنْكِر للبعث إلى وجوده ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ فهو سؤال يعود به إلى ماضيه، وما فيه من الحقيقة السابقة، ليشد انتباهه وذهنه وفكره ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ فشمل هذا السؤال جنس الإنسان الْمُنْكِر للبعث، وتعيينه وتحديده ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ فقد تم خلقه وإيجاده حينما لم يكن له وجود أصلاً. فأوجدناه قبل أن يكون على الحالة التي هو عليها. أيعجز من أوجده من العدم أن يعيد خلقه مرة أخرى؟ سؤال يستثير العقل والفكر، ليعود بالإنسان إلى الحقيقة إن ابتغاها ولم يكابر ويحيد عنها. فأعاد هذا السؤال لِمُنْكِرين البعث إثارة وبعث الحقيقة في نفوسهم وعقولهم. كيف تقول إنك لا تُبعث وقد كنت قبل خلقك لا شيء يُذكر. فإن إنكاره مثار استغراب، ولا مكان ولا محل له. فلو تأمل في وجوده، ومراحل عمره، وتقلبه فيها، وما ينشأ له فيها من التحولات الجسمية والعقلية والفكرية لأدرك عظمة قدرة الخالق سبحانه وتعالى، ولأدرك مع ذلك قدرته عَزَّ وجل على أن يعيده مرة أخرى كما خلقه أول مرة.

مما يفيد أهمية التفكير والتأمل فإنها وسيلة وسبيل للتعقل والتبصر وإدراك الحق والحقيقة الدالة على عظمة الله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير. وفي هذا بيان للطف الله تعالى، وعدم مؤاخذته للمنكر بالاستئصال والعذاب ابتداء، بل يحلم على عباده، وهو الحليم الغفور، ويعلمهم ويبين لهم ما يحقق لهم المعرفة التامة، التي تتصحح بها مفاهيمهم، ويرتفع الجهل بها عنهم، فينتفي العذر عن كل أحد من خلقه. كما يبين هذا ويفيد أهمية التوضيح بالعودة إلى الحقائق الأصلية، وأهمية السؤال والتعجب في المعالجة.

وبعد أن أثبت سبحانه وتعالى البعث بعد الموت بالحجة والبرهان يؤكد عَزَّ وجل البعث بعد الموت بقسم عظيم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ فَيُقسِمُ اللهُ تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، الدالة على ربوبيته ﴿فَوَرَبِّكَ ﴾ أي: فوربك يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ ليجمعن الله سبحانه وتعالى مُنْكِرِي البعث، وكل مشرك وكافر جميعاً، وكذلك الشياطين معهم.

ومن دقائق هذا القسم هو إضافة القسم إلى ضمير المخاطب المتمثل في نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَوَرَبِّكَ ﴾ فوربك يا محمد، وهو أصدق القائلين، وفي هذا رفعة لمنزلته صلى الله عليه وسلم

﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ ليجمعن الله سبحانه وتعالى مُنْكِرِي البعث، وكل مشرك وكافر جميعاً، وكذلك الشياطين معهم ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ فضم حشر المنكرين إلى الشياطين إذلالاً وتصغيراً لهم، وتحقيراً لشأنهم، وبيان بأنهم متصفين بما اتصفت به الشياطين من الفساد والكفر، وأنهم والشياطين في المنزلة وفي العذاب سواء. وقد وصف الله تبارك وتعالى جمعهم مع الشياطين بكلمة الحشر ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ التي تفيد جمعهم مذعنين للحشر، فلا حول ولا قوة لهم يوم يُحشرون إلى جهنم ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ وفي هذا بيان لهيئة حشرهم، بأن يُحضرهم مذعنين ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ فحضورهم سيكون حول جهنم لمعاينة مصيرهم الذي سيؤولون إليه، فيجتمع لهم قبل العذاب الحسي بانغماسهم فيها عذاباً نفسياً من الخوف والهلع، وتكون صورة حالهم حول جهنم ﴿ جِثِيًّا ﴾ أي جلوساً على ركبهم. وفي ذلك بيان لموقفهم المهين والحقير، مع قوة الإذلال وشدته، حتى أنهم من قوة ما أصابهم من الهلع والخوف جالسون على ركبهم حول جهنم مع الشياطين. وفي هذا إقامة الحجة على من أنكر البعث، مع إفادة التأكيد والتحذير والتهديد لمن أنكر بعد هذا البيان بالقسم العظيم من الله العزيز الكريم.

ثم يُخبر سبحانه وتعالى عن طريقة أخذهم، وتدرجهم في الأخذ، ودقة الاقتصاص. الذي بلغ من دقته الأخذ بالترتيب حسب تمرد وعتو العباد ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ فيبدأ الأخذ بالأشد عتواً وعناداً وجرماً. فصفة الأخذ هي الانتزاع ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ وهو الإخراج بالانتقاء، الذي يحمل دلالة الاستقصاء والاستقصاد للشيء دون غيره، بجذبه وأخذه من بين المماثلين له من جنسه ومرافقيه، وسمى سبحانه وتعالى مجموعاتهم وطوائفهم ﴿ شِيعَةٍ ﴾ لتفيد المشايعة والمناصرة، فكل أفراد طائفة يناصرون بعضهم بعضا. فَيُنْتَزع من كل فرقة وطائفة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ أيهم أشد للرحمن تبارك وتعالى كفراً ومعصية وعناداً وتجبراً وتكبراً، ثم الذي يليه، وهكذا أخذ هؤلاء المجرمين في سلسلة من التدرج في الانتزاع، ليدل على عدل الله تعالى حتى في إيقاع العذاب المشترك بينهم. كما يدل ذلك على تفاوت الكفرة في شدة الكفر والمعصية.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بكمال علمه لدقائق كفر هؤلاء ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ فإنه عَزَّ وجل أعلم من كل أحد بمن هو أحق بها، وبترتيبهم وفق من هو أشد على الرحمن كفراً وعناداً وعتياً، فليس هناك من هو أعلم من الله تعالى بهم ﴿ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ فسبحانه وتعالى هو الذي لا أحد

أعلم منه بمن هو أولى أن يُصلى بنار جهنم، ويخلد فيها، وبمن يستحق المضاعفة من العذاب. والصَّلي هو الإيقاع في النار، والدخول فيها، وصَلَتهُ النارُ أي شوته، ليفيد مباشرة عذابها له، فتغمره من جميع جوانبه ﴿أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ الأولى بها اصطلاء من المستحقين لها، ليفيد ترتيبهم في الاصطلاء، بحسب عتيهم وتكبرهم وعنادهم لربهم تبارك وتعالى. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: صَلِيَّ النار، يصلاها: إذا دخلها وقاسى حرَّها[1]

ثم يخاطب الله تبارك عباده أجمعين، المؤمن والكافر ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أنه ما من أحد منكم أيها المخاطبون إلا ويرد جهنم ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن أورد اختلاف الأقوال في معنى الورود: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يَرِدُها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله تعالى، ويهوي فيها الكفار، وورودهم هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من مرورهم بها على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مُسَلَّم، ومُكَدَّسٌ فيها[2] قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن تحريره للاختلاف في معنى الورود: ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو المرور على جهنم وهي خامدة فيه، جمعاً بين الأدلة من الكتاب والسنة، فيبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنه حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مُبعَدَاً من عذابها، أو بحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط فيكون ورودها هو المرور بها ومشاهدتها[3] وورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم عن مد الصراط على جهنم، الذي تمر عليه الخلائق (ويُضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يُجيز)[4] ويكون مرور الناس كما ورد في الحديث (فيمر المؤمنون كطرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب)[5] فيحصل بذلك الورود. وبالتالي فَمَن حَقَّ عليه العذاب دخلها، ومن ينجيهم الله تعالى بفضله ورحمته يعبرون الصراط بالسرعة التي يستحقها كل أحد منها كما بينه الحديث. وفي مشاهدة المؤمنين للنار ما يعزز لديهم قوة الفرح بالجنة، ونعمة النجاة من النار، وما يحدث لهم من قوة الفرح بفضل الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٧/٥)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠١/١٥)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٤٤/٣)
(٤) مسلم، صحيح مسلم (١٦٣/١-١٦٧) برقم (١٨٢)
(٥) المرجع السابق (١٦٧/١-١٧١) برقم (١٨٣)

تعالى عليهم، إذ نجاهم مما أعده الله تعالى للكافرين من النار. فنسأل الله تعالى العافية والنجاة منها، والدخول للجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم يؤكد تبارك وتعالى على أن ورودهم المذكور أمراً قد قضاه الله عزَّ وجل ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فوقوعه أمر لا محالة واقع كما قضاه جَلَّ في علاه. لأن الحتم ﴿حَتْمًا﴾ كما قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إيجاب القضاء، والقطع بالأمر. والمقضي ﴿مَّقْضِيًّا﴾ هو الذي قضاه الله تعالى، والمعنى: أنه حتم ذلك، وقضاه على الخلق[١] فهو واقع كما بينه سبحانه وتعالى.

وبعد ورود الجميع جهنم ينجي الله تعالى الذين اتقوه بطاعته ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فهناك فريقان: الأول الفريق الناجي ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: ثم بعد ورود جهنم، ينجي الله تعالى الذين اتصفوا بالتقوى، فأطاعوا الله تعالى واجتنبوا ما حذر منه، والنجاة تفيد عدم الدخول فيها. وأما الفريق الثاني فهو الواقع في جهنم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي: ونترك الظالمين الذين هم الكفرة في جهنم خالدين، وأما صفة جلوسهم فيها فإنهم جالسون ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي على ركبهم من شدة ما أصابهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا
(٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا
(٧٥) وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾

يخبر الله تعالى عن موقف الكافرين في الدنيا حال سماعهم آياته البينات الواضحات وهي تتلى عليهم ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فحين تُقرأ آيات الله تعالى الواضحات البينات من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من المؤمنين على أسماع الكافرين فإنهم يستهزئون بذلك ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: عندما تُقْرَأ آيات الله تعالى عليهم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٩/٥)

وتُتلى بمعنى تُقْرَأ عليهم، وفي تسميتها بالآيات ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ دليل على الوضوح، ودليل على أنها حجة وبرهان، وأن هذه الحجج ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحة الدلالة، والمقنعة التي لا مجال فيها للشك والريبة أبداً وقطعاً، فيدركون بذلك أن تلك الآيات هي كلام الله تعالى. وهنا يقع منهم العناد، فيتباهون باستكبارهم وتعاليهم، قائلين للمؤمنين بصيغة التعجب، وعلى سبيل الاستهزاء والاستنكار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فيخاطب الكفرة المؤمنين على سبيل المقارنة التي تحمل الاستهزاء والاستصغار، وبأسلوب السؤال الاستفهامي والاستنكاري التعجبي ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فَيُظهرون تفاخرهم بمساكنهم ومجالسهم الفاخرة، حيث يجتمع فيها أهل المال والثراء، وإيراد السؤال بصيغة الاستفهام المقارن، فأي الفريقين؟ أنتم أم نحن؟ أحسن وأفخر وأفخم في امتلاك البيوت الفارهة، وفي نوع الجلساء من أهل المال والثراء، من الندماء والأصدقاء والخلان؟ فيقررون بذلك زوراً وبهتاناً أنهم الأصوب، والأكثر حظاً، بناء على تلك المقاييس المادية. مما يدل على أن المقاييس التي مبناها وقاعدتها خاطئة، تستمر في الخطأ بالعناد والجدال حتى يحصل لها تصحيح وتصويب، فتتجاوز الاستعلاء النفسي، والمفاخرة الفكرية، لتبصر الحق وتذعن له، أو تبقى على ما هي عليه من الضلال.

وفي هذا احتجاج من الكافرين على المؤمنين بأن دليل صحة ما هم عليه من الشرك والكفر هو أطايب العيش والمعايشة، بما يمتلكون من المساكن ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ والتي يستدلون بها على الحظ والرفعة، وقد وصفوا مساكنهم بالخيرية، ونواديهم بالحسن ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وهو مجلس القوم ومجتمعهم، أي: مجمع الرجال الذي يجتمعون ويتبادلون الحديث فيه، والتي وصفوها بالأحسن من مجالس المؤمنين. وأفادت دلالة النص الكريم أنهم لم ينفوا عن المؤمنين مساكنهم، ولا مجالسهم، ولكن ورد التعبير عنها بأسلوب التفضيل المتمثل في الخيرية والحسن ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فاعتبروا هاتين الصورتين حكماً ودليلاً على أفضليتهم فيما هم عليه من الكفر والشرك، وجعلوها دليلاً على صحة معتقدهم الذي هم عليه، مما يدل على أن القياس في فكرهم هو قياس مادي بحت، دون النظر إلى ما هو أرفع منه، في خيرية الاتباع، بأن الأعقل هو الذي لا يعبد صنماً، وأن الأعقل يعبد الخالق، وأن الأعقل الذي يفرق بين الحق والباطل، وأن الأعقل هو الذي يسمع الحجج والبراهين فيستلهم منها الصواب، ويدركها، فيستسلم لها، ويدرك ما فيها من الحقيقة والبيان. وهذا القياس الفاسد جعل بعضهم يتمادى في كفره، بمغالطته للفكر الصائب، والمخادعة للذهن الفارغ، ومعاندة الاستنتاج الصحيح، والاستدلال المبين.

ومن قائق البيان أن جاء التعبير عن المساكن بالمقام، لأن المسكن يعبر عن الإقامة والمكوث والجلوس، كما ورد التعبير عن المجالس بلفظة ﴿نَدِيًّا﴾ التي تدل على الجلوس والسمر، مما يدل على أن حياة المؤمنين كانت فيها تقشف وخشونة، وأنهم منشغلون بالعبادة والجهاد عن لذائذ الدنيا، وأنهم يصرفون أموالهم في سبيل الله تعالى، فكانت بذلك مساكنهم أقل فخامة من مساكن غيرهم من الكافرين، وأن مجالسهم مليئة بفقراء المسلمين، فليست كما هي عند الكافرين، إذ لا يجتمع الفقراء مع الأغنياء من الكافرين في مجالسهم، بل هم عنها مُبعدون. فلا يجتمعون إلا مع أمثالهم ونظرائهم، فهي خالية من الفقراء. كما تدل كلمة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ على نوادي الجلوس والسمر، ومنتديات اللقاءات بينهم.

ثم يعالج تبارك وتعالى هذا الفهم المنتكس، وهذا الاعتقاد الخاطئ بالحقيقة المتمثلة فيما يعرفون ويدركون من حال من سبقهم من الأمم، والذي ثبت لهم هلاكهم مع غناهم، وهم في أرغد وأفضل حياة ومعيشة منهم، لِيُبطِل مقاييسهم، وبطلان مقارنتهم، وخطأ استنتاجهم، وضحالة تفكيرهم، وأن عليهم الاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ فهناك الكثير من الأمم التي أهلكناها مع أنها كانت أحسن متاعاً وملذات وسروراً منهم، بما يفيد: لو أن هذا المقياس هو لحقيقة للحق والصواب ومرضات الله تعالى عنهم لما تم إهلاك تلك الأمم. ليدل على أن نعيم الحياة، وكثرة الخير ليست دليلاً على رضا الله تعالى، وبالتالي فإن الفقر والحاجة ليس فيه دليل على سخط الله تعالى، مما يفيد أن العطاء هو محض رحمة من الله تعالى، لجميع خلقه، البار منهم والفاجر. وأن المقياس الحقيقي هو توفيق الله تعالى ورضاه عمن أطاعه.

وابتدأ النص الكريم بكلمة ﴿وَكَمْ﴾ والتي تفيد الكثرة والتعدد للهالكين الذين أهلكهم الله تعالى ممن عصوا رُسُلَهم، وهذا استفهام يستثير والتأمل، ومراجعة النفس، وفق الأحداث التاريخية التي يعرفونها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ فكم وقع قبلهم من الهلاك المتعدد من كثرته للمكذبين العاصين، الذين غرتهم ملذات الدنيا التي كانوا يعيشونها، فلم يكن ذلك علامة صحة ما هم فيه من الكفر. وسمى الله تعالى كل أمة من تلك الأمم الهالكة بالقرن ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ والقرن هو أهل كل عصر. أي: الجيل الذي تتشكل وتتكون منه الأمة والجماعة من الناس في كل عصر، وفي قوله صلى الله عليه وسلم (خير الناس قرني)[١] ما يدل على ذلك.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١) برقم (٢٦٥٢)

فإن هذه القرون التي أهلكها الله سبحانه وتعالى من قبل ﴿ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾ هم أحسن منكم ﴿ أَثَٰثٗا ﴾ أي: في المتاع والمال، وما يشمله الأثاث من الفرش المتنوع والمتعدد في البيوت. وكذلك كانت تلك القرون أحسن منظراً ﴿ وَرِءۡيٗا ﴾ أي: منظراً. فمنظرهم الظاهر عليهم من أثر النعمة هو أكثر ظهوراً منكم. قال ابن الجوزي: فالمعنى: منظرهم مُرتوٍ من النعمة، كأن النعيم بَيّنٌ فيهم[1] وكذلك تشمل دلالتها المناظر الجميلة، لتستوعب كل ما يراه الناس فيهم من أثر الخير والنعمة، والتي منها مناظر الأجسام من النعمة، ومناظر اللباس، وجمال أثاث المنازل، والألوان والأصبغة، ونحوها، بما يدل على تمكنهم في الحياة الدنيا.

وبالتالي اجتمع لدى تلك القرون الهالكة ما جعلهم أحسن منكم في المتاع والمال، وكذلك أحسن منكم في التزيين، والترتيب، بما يضفي الجمال للناظر فيما ينظر إليه من الأشياء والمكونات التي لديهم. ومع ذلك أهلكهم الله تعالى، كعاد وثمود، وقوم صالح التي بقية آثارهم فيما نحتوا من المناظر الجميلة في جبالهم. مما يدل على أنهم بلغوا أكثر مما بلغه غيرهم ﴿ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾ فلم يكن ذلك دليل على أنهم على حق، بل أهلكهم الله تعالى لما كفروا. فإن الله تعالى قد أنعم عليهم بالتمكين في الأرض، فأقْدَرَهم على ثبات أقدامهم ومصالحهم، فجعل لهم من القوة ما يتمكنون به من البناء والتشييد، واستثمار موجودات الأرض.

مما يفيد أن التمكين بيد الله تعالى وتوفيقه، فَيُسَخِّر الذهنَ إلى حُسن التصريف والاستثمار والتمكن من الاستغلال والاستفادة والاستعمال، وبلغ أولئك من رغد العيش، ومحاسن الحال ما لم تبلغوه أيها المخاطبون من الكفرة المنكرون، ومع ذلك لم يدل ذلك على صوابهم. فلا أغنتهم ولا منعتهم تلك القوة والتمكين من منع العذاب وإيقاعه بهم، فاعتبروا بذلك أيها المكذبون الصادون. فقد بلغ قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم من التمكن ما لم تتمكن منه قريش، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى لما كذبوا الرُسُل. مما يدل على أهمية الحوار، وقتل الحجة الواهية بالحجة القائمة، وأهمية العلم، وأهمية معرفة أحوال الأمم، وأحوال الناس، للعبرة والموعظة. وأن هذا الدين قائم على العلم والمعرفة والحجة والبرهان، ولذلك فإن حجته قائمة، وأدلته ظاهرة، وهي تعلو ولا يُعلَى عليها، لأنه دين الحق والصواب من رب العباد، بينما غيره دين الكذب والدجل والباطل، والتحريف.

ثم يخاطب الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ويحذرهم، بأن من حكمة الله تعالى فيمن عاند الحق الواضح بأدلته وحججه، واستمر في طغيانه فإنه يمد له فيما هو فيه، حتى يطول به غروره، فيأخذه بعذاب بئيس ﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴾ فيأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٠/٥)

وسلم بأن يقول للمتفاخرين والمتعالين بمساكنهم ونواديهم، الواصفين لأنفسهم بأنهم أصحاب خير مقاماً وأحسن منظراً ونظارة، قل لهم ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ فمن كان منغمساً في الضلالة، أي متلبساً بالكفر فإن الرحمن الرحيم يمهله في الغي، فيمد له فيما هو فيه من ضلال الكفر، فيتركه في طغيان كفره، وذلك عقوبة له على تعاليه وامتناعه عن الحق، قال لإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أن لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر. أي: من كان في الضلالة مَدَّه الرحمن مَدًّا حتى يطول اغتراره، فيكون ذلك أشد لعقابه(١) وإلا فهو الرحمن الذي يمد عباده بالهدى ودين الحق، ولا يريد لهم الشر والعذاب، وأنه بالرغم من رحمته إلا أنه يعاقب من تلبس بالعناد بمثل ما تلبس به. فورود اسم الرحمن في موضع العقوبة ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ استدفاع لهم نحو الخير، وبيان أن الأصل في إرادة الله تعالى لهم هو الخير، ولكن رفضهم للخير، استوجب لهم أن يمدهم فيما هم فيه على سبيل الاستدراج والإمهال، لتتحقق فيهم العقوبة. فيكون الجزاء مناسب لطغيانهم، وتكبرهم على الحق.

وقد أفاد مضمون الإمداد الذي هو بمعنى الإمهال ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ الإخبار والإعلام مع التحذير بأن الإمهال في كفرهم وطغيانهم، مع استمرار العطاء من الخير ليس هو من رضى الله عنهم، بل هو عقوبة. ثم أكد تبارك وتعالى هذا الإمهال أو الإمداد بتكرار لفظ المد ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ فالأول: بيان، والثاني: تأكيد ﴿ مَدًّا ﴾ ثم أعقبها ببيان نهاية هذا المد، وهو رؤية ما يُوعدون من العذاب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ وهي العقوبة التي تحل بهم ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ الذي يتحقق لهم في الدنيا، من القتل والأسر ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي: يوم القيامة. فيصيرون إلى النار. وحينها ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ وعندها، وحين حلول ذلك العذاب سيعلمون وقتها علم اليقين من هو صاحب الباطل، ومن هو صاحب الحق، ومن هو صاحب الموازين الصائبة من الخاطئة، فسيعلمون حينها من هو شر مكاناً يستقر فيه، وأسوء منزلاً ومسكناً يأوي إليه، ومن هو الأضعف جنداً وأعواناً، وقوة وأنصاراً فينهزم فيه، وسيعلم عندها أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا. حين لن ينتفعوا بما علموا من الحق، بعد أن كان في مقدورهم أن يطلبوا النعيم، ويسعوا إليه. فتصيبهم الحسرة والندامة ذلك الوقت. وفي هذا مقابلة لقول الذين كفروا ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١١)

ويُستفاد من ذلك أن امتداد النعمة على العباد لا يعني أنها دلالة الرضا، وأن دلالة الرضا هي: عندما تكون النعمة على العبد وهو في حالة الاستقامة والطاعة لله تعالى. وأما من كان في بُعد عن الله عَزَّ وجل فقد تكون من باب العقوبة، ليمتد فيما هو فيه من الضلال والطغيان. وفي هذا البيان من الله تعالى موعظة بعدم الغرور بعطاء الله تعالى من النعم، بل ينظر المرء للحق ومدى التزامه به، فهو النجاة.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه مقابل إمداده للكافرين مدًّا فإنه يزيد المؤمنين هداً على هداهم، وذلك بما يتجدد لهم من الإيمان والطاعة بالزيادة ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي: يتفضل الله تبارك وتعالى على المؤمنين بأن يزيدهم على هداهم هدى إضافياً آخر، إضافة على ما هم فيه من الهدى ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ فمن عدل الله تعالى وسنته مع عباده، أن يمد للكافرين العصاة المتمادين المعاندين فيما هم فيه، فيكون المد من جنس ما هم عليه من العمل. وكذلك يمد المؤمنين من جنس ما هم عليه من الهدى، فيزداد الكافر انحرافاً وعذاباً، ويزداد المؤمن طاعة وثواباً بالتوحيد والإيمان واليقين، وقوة البصيرة. ويشمل الهدى كل خير من الطاعة والإيمان والعلم والتوفيق والتسديد، واليقين والتقوى.

ثم يخبر الله تعالى بشأن الباقيات الصالحات ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ فالباقيات الموصوفة بالصالحات من الأعمال والأقوال خير عند ربك في الثواب والجزاء، وما يتحقق بها لصاحبها من المنزلة الرفيعة، الذي هو المردود النافع أثره عليه. فإنها خير مما يتمتع به الكفار والعصاة من النعم في حياتهم الدنيا، بإشباعهم شهواتهم المحرمة. والباقيات الصالحات هي التي يستمر نفعها، وتبقى ذخراً للمؤمن عند الله تعالى، وقد سمى الله تعالى ما يحث عباده عليه ويرغبهم فيه بالباقيات الصالحات ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ لبقائها وثبوتها، وعدم زوالها، بينما زينة الحياة الدنيا فانية ومنتهية ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ شاملة لجميع الطاعات الواجبة والمستحبة، وقيل هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض. وقال ابن جرير رحمه الله تعالى بعد أن أورد الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال

في ذلك بالصواب قول من قال هُنَّ جميع أعمال الخير[١] فأرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى ما ينفعهم في حاضرهم ومستقبلهم.

وقد وردت المقارنة بين أعمال الكافرين وأعمال المؤمنين من الباقيات الصالحات بأسلوب المفاضلة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لتعطي أن ما تمتع به الكفار من نعيم الدنيا وشهواتها المحرمة لا تشتمل على الخيرية، وأنكم أيها المؤمنون خير منهم بالصالحات الباقيات، فإن الباقيات الصالحات أكثر حقيقة في الخيرية الحقيقية عند الله تعالى، لأن الباقيات الصالحات لا تأتي من المؤمن إلا على وجه الخير، من صلاة وصيام وذكر لله تعالى، مع غيرها من الباقيات الصالحات، بينما استمتاع غيرهم من العصاة والكفرة موقوت بالدنيا فقط، ويكون شراً عليهم يوم الحساب، فيأتيهم الشر من خلالها، بما يلازمها ويلازمهم من البطر والكبر، والتطاول على الغير، واستخدامها في المعصية.

ثم ربط سبحانه وتعالى مكان الخيرية به عَزَّ وجل ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ﴾ فإذا كان اشباع شهواتهم بالمال والمعاصي متعلق بالحياة لدنيا، فإن الباقيات الصالحات مرتبطة ومتعلقة في مكانها وثوابها ومنزلتها بما عند الله تعالى، مما يدل على قيمتها ومكانتها ورفعتها التي لا تدانيها منزلة، وفي ذلك حث وترغيب للمؤمن على الإكثار من تحصيلها، والمداومة عليها، وأن لا ينظر إلى ما عليه أهل المعاصي من إشباعهم لشهواتهم، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم في الدنيا.

ثم وصفها جَلَّ في علاه بأعلى درجات الثواب والمنزلة ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ فهي خير ﴿ ثَوَابًا ﴾ أي: جزاء ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي: عاقبة ومرجعاً، وهو ما يأمله ويرجوه المؤمن من المردود والعاقبة الحميدة، وكذلك تشمل خير مما تُؤمِّلُون وتتوقعون. لأن ثواب وعاقبة ونعيم الآخرة لا يمكن أن يتصور الإنسان حقيقته قبل أن يراه، وذلك لعظيم السرور الذي يجده المؤمن بما يعطيه اللهُ تعالى من الجنان والنعيم المقيم. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: خير مرداً للثواب على فاعلها، ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها. والمَرَد: المرجع والعاقبة، والتفضيل، للتهكم بهم، وللقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً[٢] فاللهم نسألك خير الدنيا وخير نعيم الآخرة، وأجرنا من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة برحمتك يا رب العالمين.

ومن دقائق البيان تكرار الخيرية مرتين ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ لتفيد التنبيه، إذ لم تُجمع في كلمة واحدة، ويُقتَصَرُ عليها، كأن تكون: خير عند ربك ثواباً ومرداً. بل خُصِّصَت الخيرية بالثواب، ثم خُصِّصَت الخيرية الثانية بالمرجع والمردود للإنسان، والعاقبة، وفي ذلك لفت الانتباه وشد الذهن لهما، مع العناية بكل مقصد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٨٠-٢٨١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٤٨)

منها أشد العناية. فإنه جمال في السياق، وجمال في الدلالة، وجمال في الموعظة والنصيحة، وجمال في الإثابة، وإعجاز بيان من كل وجه. فالحمد لله تعالى على فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

والقاسم المشترك للخيرية بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين في الدنيا، هو أن المؤمنين في نعمة من الله تعالى، بطاعته وحُسن عبادته، وغيرها من نعمة المال والأولاد، والعزة والنصرة، والكافرون في نعمة من الله تعالى في الدنيا، والتي وصفوها ونوّهُوا عنها لأنفسهم بما بينه الله تعالى عنهم في قوله عَزَّ وجل ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ فإن ما مكنهم الله تعالى من مقام المسكن والاستقرار هو نعمة منه عَزَّ وجل. وكذلك ما هم فيه من الاجتماع في النوادي، من مجالس الرجال نعمة أخرى من الله تعالى. إلا أن فهمهم للنعمة وبطرهم جعلهم يصرفونها إلى غير وجهها الصحيح. فيؤيدون بها شركهم وضلالهم. بتصويبه وتصحيح مسارهم فيه. وعللوا صواب شركهم بما هم فيه من النعمة.

كما أن المسلمين في نعمة من الله تعالى بإسلامهم وعبادتهم، وما هم فيه من العمل بالباقيات الصالحات التي تُوصلهم للخير والنعيم المقيم. وبالتالي فكل منهما في خير في الحياة الدنيا. فاستخدام الكفار للخير كان في مجال الشر، والمؤمنون استخدموا النعمة في مجال الخير، فأصبحوا عند ربهم أحسن مما هم عليه في الدنيا من الخير. فهو للمؤمنين خير مُوصِل لنعيم الآخرة الدائم الذي لا يزول، وهو الأخير مما هم فيه من نعيم الدنيا. بما يفيد أن الكافرين في عذاب بعد أن كانوا في فسحة من الخير في الدنيا.

ومن أوجه الخيرية في السياق أنها تأتي بمعنى خير عند ربك في الاخرة مما أنتم فيه من خير في الدنيا أيها المؤمنون، فتفيد مقارنة التفضيل للمؤمنين بين ما هم فيه من خير وعزة ونصر في الدنيا، وبين ما سينالهم من خير أعظم عند الله تبارك وتعالى.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الكشف عن وجه آخر من أوجه باطل الكفرة المكذبين، مع الرد عليهم ببيان حكيم وأسلوب رصين. فقال العزيز الحكيم ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ

مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يخاطب الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين تبعاً له عليه الصلاة والسلام بخطاب تعجب من حال الذي كفر، وهو العاص بن وائل السهمي، وجميع من يماثله، والذي جمع بين الكفر وبين ادعاء الملك من المال والولد في الآخرة، على سبيل الاستهزاء والتغرير بغيره، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضَونَه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة فضة وذهباً وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً[١] فبين الله تعالى ذلك بسؤال تعجب وتهكم بحال هذا القائل الكافر، المستهزئ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أنظرت وتأملت فيما حصل لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا وأمثاله، والذي كفر بآياتنا من الحجج والبراهين في كتاب الله العزيز الحكيم الكريم، فأصر على كفره وعناده، وأضاف إليه الاستهزاء بالآخرة. فقد أثبت الله تعالى كفره بالآيات جميعاً، لأن دلالة ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ تفيد الجمع، أي: إثبات كفره بجميع آيات الله تعالى، ومنها آيات البعث والنشور.

وورد لفت النظر من الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وعموم المخاطبين بكلمة ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ والتي نفيد حصول العلم بأمر العاص بن وائل وقوله، وكأن من قوة وشيوع قوله أنه حصل النظر والمشاهدة لها، كما تحمل طابع التأمل والتفكر على سبيل التعجب الْمُسْتَنْكَر. أنظرت وتأملت فيما حصل لك من علم بهذا الذي كفر بآياتنا من الحجج والبراهين في كتاب الله العزيز الحكيم الكريم، فأصر على كفره وعناده، ولم يكتف بذلك، بل أضاف إليه الاستهزاء بالآخرة، فيقول لأوتين مالاً وولداً ﴿ وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فيقول بصيغة القسم، والجزم الذي يحمل الاستهزاء والغرور والتندر بيوم البعث، بأنه ليؤتين مالاً وولداً. بما يفيد التطاول في الكلام، أي: فيما إن بُعِثتُ على حد قولكم أيها الدائنين، فأعطيكم المال الذي لكم من المال الذي يكون لي في الآخرة.

فيرد الله تبارك وتعالى على هذا المتطاول بسؤال تعجب واستنكار وتعجيز، وتصغير لكيانه وشأنه، وحاله وقدرته، وكشف ضعفه وعجزه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ هل كان له إطلاع على الغيب فعرف وشاهد أن له مالاً وولداً؟ قد أُعدَّت له ذلك حين يأتي يوم القيام، أم هو افتراء وكذب وتطاول من عنده؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: أَعَلِم ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟[٢] وحتماً لن يقر بالعلم والمشاهدة، ولن يوافقه أحد على ذلك. بما يفيد أنه سؤال إنكار ونفي

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١٨/١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٢/٥)

وبيان لافترائه على الغيب، وإثبات كذبه، ونفي لما ادَّعَى به، من أن له في الآخرة مالاً وولداً. فهو كاذب فيما قاله، وكذلك تم حصر ما يتحقق به كذبه وافتراءه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله تعالى عهد إليه بما قاله من المال والولد؟ وفي هذا حصر لادعائه بما يثبت أنه لم يطَّلع على الغيب، وليس عنده ما يثبت ادّعاءه بأن الله تعالى خصه وعهد إليه بذلك العطاء. وفي هذا تعجيز له، بما يثبت كذبه وبهتانه وافتراءه المنافي لما لم يؤمن به، وهو البعث بعد الموت. وقد كَذَّب بآيات الله تعالى جميعها.

ثم تلى ذلك البيان المزيد من الإخبار عن مصيره الهالك الذي سيصير إليه يوم القيامة﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ فسنكتب قوله الذي حكم به لنفسه بالكذب والافتراء على الله تعالى بأن له في الآخرة مالاً وولداً. وقد بدأن النص الكريم بالزجر والردع والتكذيب له ﴿ كَلَّا ﴾ والتي تفيد الردع والزجر والاستنكار، وتكذيبه وأن الأمر ليس هو كما زعم، فإنه لا علم له بما في الغيب، ولا عهد له عند الله تعالى بذلك القول الذي افتراه من عنده ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ وسنكتب قوله الذي حكم به لنفسه من الكذب والافتراء على الله تعالى بأن له في الآخرة مالاً وولداً، مع ما سبق كتابته من كفره، وعموم الذنوب والمعاصي، حتى نجازيه بذلك يوم الحساب والجزاء، وكذلك نزيده من العذاب بما يتوافق ويتناسب مع مزيد غيه وتطاوله وبهتانه ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ ونزيده من العذاب كما زاد في كفره وغيه بالاستهزاء، والادعاء، والفجور. مما يفيد أن من كفر وتمادى في كفره، يزداد عذابه عن عذاب الكفر، جزاء وفاقاً، وعدلاً من الله تعالى بين عباده، حتى في العذاب.

ثم يبين عَزَّ وجل صورة وصوله للآخرة ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ فهناك أمران سيكون عليهما هذا الكافر الكاذب، الأول ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ يُسلب ما كان له في الدنيا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: نرث ما عنده من المال والولد، بإهلاكنا إياه، وإبطال ملكه، وبه قال قتادة. وقال الزجاج: والمعنى: سنسلبه المال والولد، ونجعله لغيره[١] وهناك دلالة أخرى، وهي: سيورثه الله تعالى أقواله التي قالها، فيتحملها، ويتحمل أوزارها وعذابها، باعتبار أن السياق متعلق بإرث القول ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ وإرث القول، يكون بإرث جزاءه.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٢/٥)

وأما مجيئه إلى الله تعالى يوم القيامة فسيكون فرداً ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ويوم القيامة يأتي إلى الله تعالى فرداً، فإنه يخرج من الدنيا فرداً، فيبعثه الله تعالى فرداً من غير مال ولا ولد. فينتهي عنه ما كان يفاخر غيره به من المال والولد الذي أغراه وغرر به في الدنيا. مما يبين خطورة الكذب والجرأة على الله تعالى، ووجوب الطاعة لتحصيل نعيم الآخرة، ووجوب الأدب مع الله تعالى، فإن المفاخرة بالتطاول على الله تعالى والكذب والتمرد والتعالي عاقبتها وخيمة.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الكشف عن وجه آخر من أوجه باطلهم، مع الرد عليه ببيان حكيم وأسلوب رصين ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ فمن ألوان كفر الكافرين من المشركين أنهم اتخذوا من دون الله تعالى آلهة لهم ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ فإن من مزيد تكذيبهم، وعنادهم أنهم اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله عَزَّ وجل. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه، مُخْتَلَق، لم يأمر الله تعالى به[1] وأما الهدف من ذلك فهو ﴿ لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ فيعبدونها ويتقربون إليها، ويرجونها، لينالوا بها العز، بما يعتقدون أنها تقربهم إلى الله تعالى زلفا، ويمتنعون بها من عذاب الله عَزَّ وجل، فتحقق لهم العزة كما يدَّعُون، من النصرة والمنعة، والشفاعة، والنجاة، وتحقيق الآمال. والحقيقة أن من طلب العزة من عند غير الله تعالى فقد حصل له الذل والهوان. فإن العزة لله تعالى جميعاً، وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأنه إذا جاء يوم القيامة سيكفر الكافرون بكل معبود غير الله سبحانه وتعالى، ويقرون لله عَزَّ جل بالربوبية والألوهية ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ فليس الأمر كما يقولون ويدَّعُون بأنها تحقق لهم العزة والرفعة والشفاعة من عذاب الله تعالى، كلا فليس الأمر كما ظنوا وتوهموا، فإنهم سيكفرون بتلك المعبودات، ويتبرؤون منها، وتكون تلك المعبودات خصوماً لهم يوم القيامة، فتتبرأ منهم وتكذبهم. وورد النفي الكريم بكلمة ﴿ كَلَّا ﴾ التي بمعنى تكذيب قولهم، مع الزجر والردع عن هذا الاتخاذ الباطل، الذي ليس له حقيقة، بل إنه أمر فاسد، وسوف تتبرأ جميع المعبودات من دون الله تعالى منهم، وتكون عليهم ضدا ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ وتكون تلك المعبودات على من عبدها ضداً عليه، أي أعداء لهم، بخلاف ما ظنوا فيها، ورجوا منها.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٩/٧)

ثم يبين الله تعالى ما حصل لأولئك الكافرين المتمادين في كفرهم من تسليط الشياطين عليهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ فيتوجه الخبر والبيان إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تر أيها النبي ما حل بهم من الخيبة والخسران، وهو استفهام يقرر به حالهم، وتأكيد لما هم عليه، مع إفادة التعجب من حالهم الذي يعيشونه، بتسليط الشياطين عليهم ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ فقد أرسلنا إليهم الشياطين، فسلطناها على هؤلاء الكافرين ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي: تحركهم وتدفعهم دفعاً إلى المعاصي، لأن الأز هو: التحريك والدفع من داخل النفس، حتى يتعاظم عليهم العذاب بما يتمادون فيه من المعاصي. فالشياطين يتسلطون على الغاوين، من أهل الكفر والمعاصي، فهي القاسم المشترك بينهم، وليس للشياطين سلطان على المؤمنين، لانتفاء هذا القاسم المشترك بينهم، بحماية الله تعالى وعنايته وفضله، فقد قال تعالى في سورة الحجر ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فليس للشيطان على عباد الله تعالى عموماً سلطان ولا ولاية ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ ثم استثنى سبحانه وتعالى أهل الغواية من امتناع سلطان الشيطان عنهم، فيقرر تولي الشيطان لهم، لأنهم شركاء معه في الغواية، فيصبح الشيطان وليهم الذي يدفعهم ويؤزهم إلى المزيد من المعاصي الموجبة للعذاب.

ولذلك تظهر عليهم آثار تسلط الشيطان بكثرة انغماسهم في المعاصي. فلقد علمت أيها النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعك من المؤمنين حالهم مع المعاصي ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ وبالتالي فلا تعجل عليهم بوقوع العذاب عليهم ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ لأن الله تعالى وقت لهم العذاب الذي سيحل بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ إنما نحصي أعمالهم وآجالهم المكتوبة، وموعد حصول العذاب بهم ﴿عَدًّا ﴾ وقد تكررت كلمة ﴿عَدًّا ﴾ لتفيد التأكيد، أي: توكيد الإحصاء الزمني لأعمارهم، والإحصاء التوثيقي لأعمالهم، وآجالهم، وموعد حصول العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ مما يدل على حلم الله تعالى، فإنه لا يعاجل العباد بما يستحقون من العذاب، بل يمد لهم، فإما أن يتوبوا، وإما أن يزدادوا طغياناً، فيحل بهم ما يستحقون.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ
ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا
إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ
وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ
عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عاقبة كل فريق من المؤمنين ومن الكافرين يوم القيامة ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ فاذكر أيها النبي عليه الصلاة والسلام ذلك اليوم الذي يجمع الله تعالى فيه المتقين، الذين خافوه في الدنيا واتبعوا رُسُلَه، وصدقوهم فيما أخبروهم به، وأطاعوهم فيما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عما نهاهم الله عَزَّ وجل عنه، فإن الله تعالى يجمع هؤلاء المتقين وفداً مكرمين مبجلين مُعظمين.

وقد أفادت كلمة الحشر ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أفادت الجمع، وهو جمع الله تعالى المتقين وفداً إليه ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ فيفدون إلى ربهم الرحمن تبارك وتعالى. وفي اقتران اسم الرحمن بهذا اليوم، ما يفيد تلقيهم من رحماته سبحانه وتعالى وكرمه وجوده. وتكون صفة مجيئهم وحشرهم ﴿وَفۡدٗا﴾ وهي الصفة التي تحقق معنى التكريم وهيئته من التبجيل والحفاوة، والرغبة في عطاء وكرم من يفدون إليه سبحانه وتعالى، وإذا جُمعت معها تسميتهم ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أفاد ذلك تحقيق التكريم والتبجيل في حقهم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ذكر المتقون بلفظ التبجيل. وهو أنهم يُجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، وخصَّهم برضوانه، وكرامته[1] والوفد هم الركبان، يقال: وفدت على فلان، إذا قَدِمَتَ عليه. قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: والوفد في هذا الموضع بمعنى الجمع[2] فيكون دلالة الحشر للمتقين هنا هو جمع تكريم وحفاوة لهم وتبجيل، فتكون هيئة الوافدين القلبية تحمل الرجاء مما عند الله عَزَّ وجل، راجين رحمته وإحسانه سبحانه وتعالى.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٩/١٥)

ثم يخبر الله تعالى بمآل الكافرين ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ فأما الذين كفروا فيُسَاقُون إلى جهنم كما تُساق البهائم من رُعَاتِها، في ذُل وصَغار. وسماهم تبارك وتعالى ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ بما يناسب كفرهم، وهو المتناهي قبحه، والمصادم للحق والخير والصلاح. وجعل سبحانه وتعالى ورود الكافرين إلى النار بصفة وهيئة السَّوق ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ فَيُسَاقُون إلى جهنم كما تُساق البهائم، وكلمة السوق تحمل دلالة الإذلال والإهانة، ويُساقون وهم ﴿ وِرْدًا ﴾ أي: مشاة، ظِمَاءً، عِطَاشاً، لأن أصل الوِرْد هو المجيء إلى مصدر الماء للارتواء، وذلك للحاجة إليه من العطش. فمع عطشهم وشدة ما هم فيه من العذاب النفسي والجسدي، فإنهم يُهانُون ويُذَلُّون في مسيرهم إلى غايتهم، ومحل إقامتهم، في جهنم وبئس المصير.

وفي هذا البيان من الله تبارك وتعالى ما يفيد الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر، وهو عبارة عن خطاب بياني للنتيجة التي يؤول إليها المؤمنون والكافرون، فإنه يحمل الترغيب لعباده فيما عنده سبحانه وتعالى من النعيم لمن آمن واتبع رسوله صلى الله عليه وسلم. وترهيب وتحذير للكافرين من البقاء على كفرهم، فإن المصير الذي ينتظر الكافرين هو العذاب المقيم في جهنم وبئس المصير.

ثم يبين الله عَزَّ وجل الْغُبْن الذي يحصل للكافرين، باستحالة الشفاعة فيهم ولهم، بينما أثبتها للمؤمنين فيما بينهم ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ فنفى سبحانه وتعالى امتلاك الكافرين الشفاعة ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ فإنها لله تعالى، وقد منع منها الكفرة، فلا يشفعون، ولا يُشَفَّع فيهم، فإنهم منسلخون منها تماماً، فالمجرمون لا يملكون الشفاعة، وليس لهم منها شيء البتة، وفي نفي مُلْك الشفاعة عنهم، دلالة على انتفاء الحظ والنصيب والمقدرة والاستطاعة، بما يبين قوة الحسرة والمهانة. بينما أثبت الشفاعة بفضله وكرمه ورحمته لمن اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المؤمنون، فإن لهم عهد عند الله تعالى أن يشفعوا فيما بينهم. والعهد هو تحقيق الإسلام، فقد استحقوا الشفاعة بتحقيقهم توحيد الله تعالى، والإيمان به، وطاعته، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، والإقرار والعمل بما جاء به، فقد استحقوا بذلك الشفاعة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المسلمون، فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه[1] فحين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله تعالى فإن المجرمين محرومون من ذلك. مما يفيد أن المؤمنين يشفعون لبعضهم البعض في تجاوز العذاب، أو الخروج منه، ودخول الجنة.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/١١)

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى قبح قول بعض الذين كفروا، وهم الذين نسبوا لله تعالى الولد ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴾ وهذا تقبيح من الله عَزَّ وجل لمن نسب الولد إليه عَزَّ وجل، وتشنيع لقولهم، كقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، فتعالى الله عما قالوا علواً كبير. فيكذبهم الله تعالى ويلجمهم بأقوى الرد ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ فلقد جئتم بافتراء عظيم، وبقول منكر وعجيب. بما يفيد الإلجام والتوبيخ والتقريع، والتكذيب لهم بما افتروه على الله تعالى من الولد. فكلمة ﴿إِدّٗا ﴾ دلالة على الشيء العظيم الكبير، الذي تناهى في عظمته وكبرِه، وهو أعظم العظائم، وأدهى الدواهي. قال الجوهري رحمه الله تعالى: الإد، والإدة: الداهية، والأمر الفظيع [1]

ثم أكد تبارك وتعالى عظمة وشناعة هذا القول بما كاد أن يحصل للسماء من الانفطار على قوتها وعظمتها، فقال عَزَّ وجل ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾ فعلى عظمة السماوات وقوتها فإنها أوشكت أن تتشقق من هذا البهتان العظيم ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ ﴾ أي: يتشققن من قوة جرم هذا القول الفظيع العظيم، بأن الله تعالى اتخذ ولدا، فأوشكت أن تتساقط عليهم لتفطرها بالتشقق. بل وكذلك الأرض التي تقلهم وتحملهم فقد كادت أن تتصدع ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ أي: تتصدع من هول قولهم، وعظمة قبحه، وتجرؤهم على ربهم تبارك وتعالى، فتنخسف الأرض لذلك القول العظيم لقوة شناعته وهوله. بل حتى الجبال على قوتها ورُسُوها ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾ فتساقط الجبال دكاً، متهدمة بعضها على بعض من فظاعة هذا القول وضخامة جرمه. وهو ﴿ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾

فهو أمر يتنافى مع عظمة الله تعالى، فليس لله عَزَّ وجل حاجة في الولد، فهو حي لا يموت، والخلق يموتون، فلا يحتاج سبحانه وتعالى إلى الوريث، وهو القوي العزيز، المستغني عمن يساعده ويعاونه، وهو الخالق، الغني عن كل مخلوق. فكيف يحتاج الولد وهو الغني المغني. فالذي يحتاج الولد من له صفة الضعف، بينما الله سبحانه وتعالى قوي غني عن جميع مخلوقاته، وهي المفتقرة لغناه ورحمته ورزقه وعطائه. فإنه افتراء عظيم على الله عَزَّ وجل، فسبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. مما يدل على قوة تفاعل هذه العظائم من المخلوقات مع هذا الوصف الذي يحمل الافتراء العظيم، والبهتان المبين، فيصدر من هذا المخلوق الضعيف الذي يتعاظم بحجمه، وكبير جهله على الحق. فكان الأولى به تعظيم وإجلال ربه تبارك وتعالى، الذي زوده بالعقل

---

(١) المرجع السابق (١٠٤/١١)

والفكر، والقدرة على القياس والاستنتاج. فكان واجبه تعظيم وإجلال ربه تبارك وتعالى. مما يدل على أن هذه المخلوقات مدركة لحقيقة ربها سبحانه وتعالى وتوحيده وربوبيته وألوهيته، وتتأثر بالقول والعمل الفاسد، كما تتأثر بالقول الكريم والتبجيل العظيم لربها سبحانه وتعالى، فهل أنت أيها العاقل ضد تلك المخلوقات التي لا تعقل؟

فمن كانت صفاته الغني المغني، والمحيي والمميت، والقاهر والقوي والعزيز فإنه لا ينبغي أن يكون له الولد ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالولد يكون للعاجز، ولمن يحتاج الإعانة من غيره، ومن له أمل في أن يرثه غيره بعد موته، وأما الله تبارك وتعالى فهو حي لا يموت، فلا ينبغي له أن يتخذ ولداً، وهو كامل الغنى، بل هو الذي يغني ويفقر ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فلا يليق به سبحانه وتعالى ذلك، ولا ينبغي أن يكون ذلك له، وهو المنفرد والمتفرد الذي لم يلد ولم يولد. صاحب الجلال والجلالة والعظمة والكبرياء والسلطان والقهر، ذو العرش العظيم الذي وسع عرشه السماوات والأرض، فلا يجوز في حقه إلا الوحدانية والغنى عن كل شيء، فليس كمثله شيء وهو الغني المغني.

ويعزز الله تبارك وتعالى نفي الولد بقوله العظيم، وسلطانه المجيد ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾ فما من أحد في السماوات والأرض إلا وهو آت لربه عَزَّ وجل ذليلاً ضعيفاً طائعاً له سبحانه وتعالى. فإن الذي يأتيه كل ما في السماوات والأرض طائعاً، ذليلاً، فإنه لا حاجة له في الولد، الذي يحتاجه من يفتقر إلى عونه ومساعدته، لضعفه، وحاجته لمن يعينه. ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾ فما من أحد إلا هو عبد لله تعالى، وآتي لربه ذليلاً مرغماً، فليس هناك من هو ممتنع عن إرادة الله جَلَّ في علاه، فكل من هو في السماوات والأرض ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾ يأتي إلى الرحمن عبداً ذليلاً، مقهوراً مجبوراً، فجميع خلقه من الإنس والجن والملائكة مملوكين له عَزَّ وجل، بل لا يتصرفون إلا بمشيئته وإرادته عَزَّ وجل.

مما يفيد أن ليس لهم من أمر التدبير شيء وهم عبيد له سبحانه وتعالى، إلا بما يأمرهم به، ويُقَدِّرهم عليه. مما يدل على عدم الحاجة للولد، وهو الغني عن كل شيء، وأن كل شيء هو عبد له سبحانه وتعالى. وبالتالي فإن مَن ادّعى أن عيسى أو عزيراً أو أحداً من الملائكة ابناً لله تعالى فقد كذب وافترى من عنده بهتاناً عظيماً. فإنهم جميعاً يأتون لله فراداً وأذلاء، فكيف عبيده يصبحون أبناء له؟ وفي هذا ابطال لكل معبود من دون الله تعالى، فإنها تأتي ذليلة لله تعالى، فإن في ذلك محاجة وبيان عظيم من الله سبحانه وتعالى في إبطال كل معبود غير الله عَزَّ وجل. وبيان كيف سيكون حال الناس يوم القيامة. ليكون ذلك موعظة وحجة بينة، فلا يلوم الإنسان إلا نفسه.

بل من عظمة ملكه سبحانه وتعالى أنه قد أحصاهم من كل وجه ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾

فالأمر الأول: ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ ﴾ أي: أنه عَلِم عددهم، فحصرهم نوعاً وحركة وعدداً، وحصر عدد أنفاسهم، وأيامهم، وآثارهم، فلا يخرج عن علمه شيء مما خلق سبحانه وتعالى، بل لا تسقط ورقة إلا يعلمها، حتى سماع دبيب النمل يسمعه سبحانه وتعالى. والأمر الثاني: ﴿ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾ أي: فلا يخفى عليه أحد من بين كثرتهم، فأحصى عددهم بذواتهم، وأشخاصهم، بل وأكد ذلك بتكرار العد ﴿ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾ فالعد الثاني ﴿ عَدّٗا ﴾ تأكيد للأول، لإفادة الجزم والتأكيد والتحقق الدقيق، فلا يغيب عنه أحد من بين كثرتهم.

ومن دقائق البيان أن ذكر سبحانه وتعالى الإحصاء والعد، فالإحصاء يشمل العدد لكل أنواع خلقه، فهم معروفون عدداً ونوعاً، وتفاصيل ما يتعلق بهم، فقد أحاط بهم من كل وجه، فدلالة الإحصاء تجمع مع العدد الإحاطة التفصيلية، فيعرف أحوال جميع العباد، وكل أحد بأدق المعرفة التي لا يخفى عليه منها شيء، قال عَزَّ وجل في سورة النحل ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ فلو حصل لكم عدّها على سبيل الافتراض، ستعجزون عما هو أدق، وهو الإحصاء لها، بأن تحيطوا بالتفاصيل من الفضائل والخصائص والدقائق. فالإحصاء يشمل العد والحفظ والإحاطة. وأما العد فهو معرفة العدد ومفرداته ﴿ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾ وفي ذلك انتقال من بيان الإحصاء إلى العدد، ومن الإحاطة إلى الآحاد من خلقه تبارك وتعالى وإلى الإجمال في العدد. فيعرفهم واحداً واحدا من بين جنسهم، فلا يختلطون على ربهم تبارك وتعالى، ولا يختفون أو يتخفَّون عنه. قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾وهذا من دقائق البيان، وإعجاز تراكيب الألفاظ ودقة المعنى والمقصد في القرآن الكريم.

بل ومن دقة قدرته سبحانه وتعالى، فإنه على كثرة عباده فإنهم يأتون إليه منفردين يوم القيامة، أي: فرادى ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ فيأتون يوم القيامة منفردين منعزلين عن كل شيء كان يرافقهم ويمتلكونه من الدنيا، فيأتون يوم القيامة بلا مال، ولا نصير، ولا ولد، فليس معهم إلا أعمالهم، فيأتي كل فرد وحيداً ليس معه من الدنيا شيء. فيحكم بعدله في عباده بما يستحقون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ختام سورة مريم، ببيان ما أعده لعباده المؤمنين المضادين لحال الكافرين الذين أعد لهم العذاب الشديد، فقال تبارك وتعالى عن جزاء المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ فإن الذين اختاروا الإيمان بالله تعالى، والعمل بشريعته، فحققوا فيه الشرطين: الأول، وهو: الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فصدقوا بالله تعالى ووحَّدُوه. وآمنوا ببقية أركان الإيمان. كما حققوا الشرط الثاني الذي هو: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأطاعوا الله تعالى، بعمل الصالحات التي تضمنتها شريعته سبحانه وتعالى، فجمعوا مع إيمانهم العمل بالأعمال الصالحات التي أوجبها تبارك وتعالى في كتابه الكريم، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن لهم مقابل إيمانهم وما عملوه من الصالحات غرس المودة في القلوب ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي: يغرس مودة ومحبة في قلوب عباده للمؤمنين الذين أطاعوا الله تعالى، ويشمل ذلك أهل السماوات والأرض.

مما يفيد أن من حضي بهذه المحبة أسعده الله تعالى بمحبة غيره له، فكان الناس عوناً له، لمحبتهم لهذا المؤمن الذي وضع الله تعالى محبة له في قلوب عباده. قال السعدي رحمه الله تعالى: وَعَدَهُم بأن يجعل لهم وداً، أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وُدٌّ تيسر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل[1] وورد في الحديث (إن الله إذا أحب عبداً، نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحِبَّه، فيحبه جبريل. ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض)[2]

وقد بدأت الآية الكريمة بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يؤكد حقيقة ما بعده، فيشمل توكيد الإيمان الذي يجمع جميع أركان الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأن يكون إيمانهم اعتقاداً جازماً بالقلب، ثم يصدقه العمل

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٢١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤٠١) برقم (٧٤٨٥)

بالصالحات ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ليتبين وجوب العمل بالصالحات، ووجوب أداءها كما شرعها ربنا تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وتشمل الصالحات عمل الجوارح بجميع ما تضمنه الدين من العبادات والأخلاق، وجميع شريعته سبحانه وتعالى في أصولها وفروعها.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بنعمة كتابه القرآن الكريم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ فإنما يسرنا وسهلنا هذا القرآن بلسانك، التي هي لغتك العربية أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ وفي هذا ثناء ومدح لهذه اللغة التي اختارها الله تعالى لكتابه تبارك وتعالى، وثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بإضافة اللغة العربية له ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ واللسان هو اللغة، أي بلغتك أنت أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يدل على أن هذه اللغة العربية هي أفصح اللغات وأفضلها وأجلها، لكونها لغة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وكونها لغة كتاب الله تعالى القرآن العظيم. وفي إضافتها للسان الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ما يبين رفعة مقامه صلى الله عليه وسلم، ورفعة مقام لغته العربية.

بل ورد البيان لها بأسلوب الحصر والقصر ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ بل وأضافت أيضاً جانب التيسير ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ مما يدل على تسهيل فهمها لمن أرادها، وسهولة نطقها، وسهولة استعمالها. ويلاحظ ذلك على غير العرب في اتقانهم للقرآن الكريم.

ثم أظهر جَلَّ جلاله الغاية والهدف الذي من أجله أنزل القرآن ويسره ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ ليحصل منك أن تبشر به المتقين، وتحذر المعاندين المتكبرين. فالتبشير لما في القرآن الكريم من البشارة لمن اتصف بالإيمان وعمل الصالحات، فحقق في نفسه التقوى، بطاعة الله تعالى، رغبة في ثوابه وخوفاً من عقابه. والهدف الآخر هو ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ وتخوف وتحذر به ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ وهم المتصفون بالشدة والعناد، فهم أقوياء في عنادهم، فلا يقبلون الحق ولا يذعنون له، فهم أهل اعوجاج عن الحق، متحلين بالكذب وشدة المقاومة، مما يدل على قوة تمسكهم بكفرهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال

أي: فجاراً، وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: الألد: الظلوم[١] وهو الخصم الجدل[٢] وفي هذا الوصف ما يفيد التوبيخ والذم للكافرين المعاندين. مما يبين أن من عاند فإنما عناده كان جحوداً وكبرياء وحسداً لما جاء به النبي والرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا ترغيب وترهيب من الله سبحانه وتعالى ببيان الحجة الواضحة، والجزاء لكل فريق، حتى لا يلوم كل إنسان إلا نفسه.

ثم يختم الله تعالى هذه السورة العظيمة بتوعده للكافرين إن لم يعتبروا بمن أهلكهم الله تعالى من قبلهم من الأمم التي كذبت رُسُلَها، وانتهى أمرها ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ يلفت اللهُ تبارك وتعالى انتباه الصادين عنه، وعن كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم وآياته إلى حال من سبقهم من المكذبين الضالين عبر القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ هل تشعر بأحد منهم اليوم؟ فبقي له أثر. وهل تحس لهم من صوت خافت خفي بقي من بعدهم؟ إنه سؤال يفيد النفي من أن يكون أحداً منهم قد بقي إلى اليوم، فقد انتهوا وبادوا. ليفيد أخذ العبرة منهم ومن حالهم.

وقد بدأت الآية الكريمة بشد الانتباه من خلال السؤال الذي يفيد نفي الأثر، ويثير التأمل، والاستنكار والتعجب من حال هؤلاء المكذبين الذين لم يعتبروا بمن قبلهم، ممن تشابهوا معهم في الصدود، وما حل بتلك الأقوام الماضية، وما يستحقون من أن يكونوا مثلهم في العذاب، كعاد وثمود وغيرهم. وجملة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ سؤال يفيد تقرير أخبار أقوام سابقين، قد تشابهوا معهم في العناد والصدود، فيقرر فيه تعالى أنه لم تنفعهم، ولم يمنعهم ما مكنهم الله تعالى فيه من أن يحيق الهلاك والدمار بهم.

وجملة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ تفيد ألم ينته إلى علم هؤلاء المكذبين الصادين خبر أولئك المعاندين من قبلهم، الذين شاع خبرهم، فانتهى إلى علمهم ما حل بهم من العذاب. وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ فإن إخباره سبحانه وتعالى يقع من الصدق بأن المُخَاطب يعلمه علم اليقين. مما يدل على أن خبر أولئك الأقوام ذاع وانتشر، واستمر ذيوعه بما يتناقله الناس عن بعضهم البعض حتى أصبح يقيناً لدى المخاطبين. وكلمة ﴿ وَكَمْ ﴾ تفيد الكثرة، فهو استفهام عن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/١٨٦)

العدد الكثير من المكذبين الذين أهلكهم الله تعالى، مما يفيد التضخيم والتعظيم لتلك الأمم التي تم إهلاكها بسبب كفرها، فالذين أهلكهم الله تعالى من المكذبين ليس بالقليل، بل أعداداً عظيمة كثيرة من الأمم المكذبة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ فأعداد كثيرة أهلكناهم قبلكم من المكذبين بما جاءهم من الحق. وتفيد كلمة ﴿ قَرْنٍ ﴾ الأمة من الناس، وهم أهل كل عصر، وفي الحديث ما يدل على ذلك (خير الناس قرني)[١] وإن في هذا لعبرة وموعظة واعتبار لهم.

ثم يلفت سبحانه وتعالى أذهان الكافرين بسؤال استنكار على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، عن انتهاء تلك القرون الظالمة التي سبقتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد انتهت، فلم يعد لهم حس ولا حركة ولا نشاط ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ وكذلك هؤلاء الكفرة الجاحدين اليوم للحق، فسيكونون أثراً مثل أثر من كان قبلهم، فإلى الموت سائرون، وإلى البعث والحساب والجزاء واقفون. فلن يكون لهم بقاء في هذه الدنيا ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ فهو سؤال استفهام يفيد نفي وجودهم، فلا تحس منهم من أحد البتة. ومن جميل البيان ودقته استعمال دلالة الحس ﴿ هَلْ تُحِسُّ ﴾ ليستوعب جميع الحواس التي وهبها الله تعالى للإنسان، فلا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم أحداً، فلا تشعر بهم تماماً، ولا حتى فرداً واحداً من تلك الأقوام الكثيرة.

ثم يخص سبحانه وتعالى السمع ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ وهو الصوت الخفي. قال الزجاج رحمه الله تعالى: أي: هل ترى؟ يقال: هل أحسست صاحبك، أي: هل رأيته؟ والركز الصوت الخفي. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: الصوت الذي لا يُفهم[٢] فهو بيان لقوة الرحيل وتقادم الزمان والهلاك، وتعجيز الحصول على أدنى العدد وهو الواحد، ولا حتى صوتاً خافتاً لهم، بما يدل على السكون العظيم الرهيب الذي حل بعدهم في مساكنهم. أليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟ فإن الله تعالى قد أنعم عليهم بالتمكين في الأرض، فأَقْدَرَهم على ثبات أقدامهم ومصالحهم، فجعل لهم من القوة ما تمكنوا به من البناء والتشييد، واستثمار موجودات الأرض. ومع ذلك لم تغنهم ولم تمنعهم تلك القوة والتمكين من منع العذاب وإيقاعه بهم، فاعتبروا بذلك أيها المكذبون الصادون. فقد بلغ قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم من التمكن ما لم تتمكن منه قريش، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى لما كذبوا الرُّسُل، فلم يبق لهم حس ولا ركزا.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١) برقم (٢٦٥٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/١٨٦)

فإنها موعظة عظيمة الأثر لمن تمعن فيمن عاشوا قبله، فلم يبق لهم صوت ولا حس ولا وجود البتة، وإنما يقابلون أعمالهم في قبورهم، ثم البعث والحساب والجزاء.

تم بحمد الله إتمام سورة مريم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. واجعله عملاً متقبلاً ونافعاً يا رب العالمين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.